علي ابراهيم
خليل الخفاجي

حبرُ الخيفِ

رسائل من ماضٍ لم ينتهِ بعد



بيانات الكتاب

حبرٌ لا يجفّ: رسائل من ماضٍ لم ينتهِ بعد

رواية من تأليف علي إبراهيم خليل الخفاجي. جميع الشخصيات والأحداث في هذه الرواية متخيّلة، وأي تشابه مع أشخاص أو وقائع بعينها غير مقصود. الحكايات الواردة فيها ليست سجلات لحالات حقيقية، بل مشاهد أدبية تصوّر تجارب إنسانية ممكنة.

هذه الرواية لا تقدّم تشخيصاً نفسياً ولا بديلاً عن استشارة المختصين. إذا كان القارئ يمرّ بضيق شديد أو خطر مباشر، فطلب المساندة من شخص موثوق أو مختص خطوة شجاعة ومناسبة.

النص والحقوق الأدبية © 2026 علي إبراهيم خليل الخفاجي. جميع الحقوق محفوظة.

إهداء

إلى الذين يرمّمون ما يستطيعون،

ويتعلمون أن يتركوا للغد بابًا مفتوحًا.

إلى من يحملون رسائل الأمس برفق،

ويكتبون اليوم خطوةً جديدةً بشجاعة.

فهرس الرسائل

أربعة أجزاء · اثنا عشر فصلاً

الجزء 1 · جدار الطفولة

01 ما وراء الجدار	7
02 بيتٌ يتذكّر	11
03 ما يتركه الحبر	16

الجزء 2 · شقوق المراهقة

04 ما يختبئ في الجدار	22
05 نسخة العرض	27
06 أن تقول ما تعرف	33

الجزء 3 · وهم الشباب

07 الرسالة التي تعرف الطريق	39
08 ما لا يقوله المقيمون	42
09 المساحة التي لم تُملأ	47

الجزء 4 · الترميم الأخير

10 الورقة التي بقيت	52
11 ما لا تحفظه الذاكرة	57
12 خطوة الغد	62

قبل أن نفتح الصندوق

ليس الماضي غرفةً نعود إليها كما هي؛ إنه بيتٌ يتغيّر كلما دخلناه، لأننا ندخله بعيونٍ جديدة. قد نحمل منه رسالةً قديمة، أو صورةً باهتة، أو روايةً ظللنا نكررها حتى بدت لنا حقيقةً لا تقبل السؤال.

يعود آدم إلى بيت طفولته وفي ذهنه خطة واضحة: أن يصلح ما تهدّم، ثم يبيعه. لكن الجدار يخبّئ صندوقاً صغيراً، والصندوق يخبّئ أصواتاً كتبها فتى في أعمار متباعدة. وبين ورقة وأخرى، يكتشف آدم أن الإنسان قد يشتاق إلى نسخة من نفسه لم يعشها، لا ليعاقب نفسه على ما فات، بل ليفهم الطريق الذي أوصله إلى هنا.

هذه رواية عن الذاكرة حين تخطئ، وعن المحبة حين تختلط بالتضحية، وعن الشجاعة التي لا تعني غياب الخوف. ليس في صفحاتها وعدٌ بأن خطوةً واحدة تمحو التعب، ولا أن كل خلاف ينتهي كما نتمنى. فيها فقط أشخاص يحاولون أن يقولوا الحقيقة بقدر ما يستطيعون، وأن يختاروا فعلاً صغيراً بدلاً من انتظار يقينٍ كامل.

اقرأها حكايةً أولاً. وإذا وجدت فيها سؤالاً يشبه سؤالك، خذه برفق؛ فليس كل ما يلامسنا يحتاج إلى جوابٍ فوري.

كيف تقرأ هذه الرسائل؟

في بداية كل فصل، ستظهر كلماتٌ كتبها آدم في عمرٍ سابق. لا تقرأها بوصفها حكماً على ما صار إليه؛ إنها آثار لحظةٍ محددة، وفيها خوفٌ ورجاءٌ وشيء من المبالغة التي نحتاجها أحياناً كي ننجو من يومٍ صعب.

قد تساعدك الحكاية على ملاحظة ثلاثة أشياء: ما الذي تعرفه فعلاً، وما الذي تفسّره من عندك؛ ما الخطوة الأصغر التي يمكن فعلها هذا الأسبوع؛ ومن الشخص الآمن الذي تستطيع أن تتحدث إليه بصدق. لا يلزم أن تحلّ كل شيء دفعةً واحدة، ولا أن تسمي التراجع فشلاً أو الصبر جبناً. لكل موقف سياقه وحدوده.

إذا أثارت الرواية حزناً أو ذكرى ثقيلة، خذ استراحة، وارجع إليها حين تشعر بالاستعداد. مشاركة همّك مع شخص نثق به قد تكون نافعة، والاستعانة بمختص أمرٌ طبيعي عندما يطول الضيق أو يعطّل حياتك. أما القرار الذي ستتخذه فيبقى لك؛ خذه بعد التثبت، وبما يحفظ كرامتك وسلامتك وسلامة الآخرين.

الجزء 1 · جدار الطفولة

الفصل الأول: ما وراء الجدار

◆ —— ◆

«أحياناً لا يفتح الجدار باباً، يفتح زمناً.»

لم يكن الصوت عالياً. طرقة قصيرة، جافة، ثم شيء تدحرج في جوف الحائط وتوقف. ومع ذلك ظل آدم ممسكاً بالمطرقة في الهواء، كأن الضربة خرجت من يدٍ أخرى. تناثر غبار أبيض على كمّه، وارتجف ضوء المصباح المحمول في يده على الجدار الذي قضى الصباح يحاول إنقاذه.

كان قد اختار موضعاً خالياً من الأسلاك، رسم مستطيلاً بقلم رصاص، ثم أزال طبقة اللياسة بحذر. عمله لا يحتمل المفاجآت؛ هكذا كان يقول للزبائن، وهكذا أمضى ثمانية عشر عاماً يرمم شقوقاً يعرف سببها، ودعامات يستطيع حساب حركتها، وبيوتاً يحفظ أصحابها أسماءهم أكثر مما يحفظون أسماء جدرانهم. لكن البيت القديم لم يكن زبوناً. كان بيتهم، واليد التي تضربه يد ابن عاد إليه كي يبيعه.

اقترب من الفتحة. مرر ضوء المصباح فيها، فلم يرَ إلا سواداً ضيقاً، وحافة خشب متآكلة. طرق حولها بمقبض المطرقة. أجابه الجدار بصوت أجوف من جهة، صلب من جهة أخرى. أعاد الضربة، أوسع قليلاً، فانفرجت قطعة من الطابوق وانزلقت إلى الداخل.

لم يكن في الحائط تجويف كبير. مجرد فراغ صغير، ربما تركه البنّاء حول علبة قديمة، لكن الشيء المعدني القابع فيه بدا غريباً عن البناء: صندوق مستطيل، بلون الصدأ، ملفوف بقطعة قماش زرقاء باهتة. كان عالقاً بين طابوقتين كأن البيت أخفاه على عجل ثم نسيه.

وضع آدم المطرقة أرضاً. نادى، من غير أن يرفع صوته:

— ليلى؟

جاءه صوتها من آخر الممر:

— نعم؟

— تعالي شوفي هذا.

ظهرت أخته عند الباب وهي تمسح يديها بمنشفة المطبخ.

في الرابعة والثلاثين، كانت تحمل في مشيتها شيئاً من استعجال من اعتاد أن ينجز ما يتأجل عند الآخرين. نظرت إلى الحائط، ثم إلى الصندوق.

— هذا من أغراض أبي؟

— لا أعرف. كان داخل الجدار.

— يعني خبّأه؟

— أو خبّأه البنّاء، أو وقع هناك قبل ما يسكرونه. لا نعرف بعد.

لم تمد يدها إليه. وقفت قريبة منه، لكن عينيها صارتا بعيدتين، في مكان لم يكن آدم يراه. قال لها إنه سيخرجه، وأنه لن يفتح الصندوق قبل أن يصوره. هزت رأسها، ثم عادت إلى المطبخ لتطفئ الغاز تحت إبريق الشاي. لم يكن بينهما خلاف، غير أن كل واحد منهما صار يترك للآخر مساحة صغيرة يتنفس فيها.

أمسك آدم بالقماش وسحبه برفق. انفصلت عنه خيوط الغبار، وبقي الصندوق في يده أثقل مما بدا. كان غطاؤه مقفلاً بمشبك نحاسي صدئ، لا بقفل. حين رفعه انبعثت رائحة الحديد الرطب والورق القديم، رائحة لا تشبه العفن بقدر ما تشبه خزائن المدارس في نهاية الصيف.

في داخله ورقة مطوية أربع طيات. تحتها رسمة على ورق مسطر، وخريطة لا تكاد تكون خريطة: خط متعرج ينتهي بمربع أحمر، دائرة حول شجرة، وسهم يشير إلى كلمة «هنا». فتح الورقة بحذر. كانت الكتابة طفولية، بعض الحروف مائلة فوق السطر وبعضها يهبط تحته. عرفها قبل أن يقرأ الاسم.

«إلى أبي، إذا خفتَ أن يضيع هذا البيت. أنا آدم، عمري عشر سنوات. أعرف أن الظلام ليس وحشاً، لكنه يخوفني عندما أكون وحدي. سأكون شجاعاً مثلما تقول.

أعدك ألا أخاف من الظلام أبداً.»

وتحت الوعد رسم بيتاً ذا نافذتين كبيرتين، سقفه أحمر، وبابه أزرق. إلى جانب البيت شخصان، واحد طويل يحمل مفتاحاً، والآخر أصغر منه يمسك مصباحاً. لم يكن ثمة أمّ في الرسم، ولا ليلى. فقط الأب والولد والبيت الذي يشبه بيتهم بما يكفي كي يكون هو، ويختلف عنه بما يكفي كي يكون بيتاً يريده الطفل.

توقفت عيناه عند الوعد. كان الحبر أزرق، متقطعاً عند حرف الراء في «أخاف»، كأن القلم انقطع أو اليد ترددت. مد إصبعه بمحاذاة السطر، ولم يلمس الورقة. شعر فجأة أن الغرفة تضيق، وأن النور الخارج من المصباح لا يبلغ الزوايا. سمع صوتاً من طفولته: طقة الباب حين يغلقه أبوه في آخر الممر، ثم خطوته الثقيلة تبتعد نحو المطبخ.

قالت ليلى من خلفه:

— شنو مكتوب؟

لم يجب فوراً. أعاد قراءة الرسالة بصوت مسموع، متأنياً عند الجملة الأخيرة. حين انتهى، سكتت ليلى. مدت يدها إلى الورقة، لكنها لم تأخذها؛ اكتفت أن تنظر إلى الرسمة.

— كنت تكتب لأبي؟

— يبدو ذلك.

— كان يقرأها؟

قلب آدم الورقة. ظهر على الوجه الآخر أثر لطخة حبر، ولا شيء سواه.

— ما أدري.

لم تقل ليلى إن أباهم كان يحتفظ بكل شيء، ولا إنه في أواخر حياته صار ينسى نظارته ومواعيد الطبيب. أما رسائل الأولاد فلم تتذكرها.

أعاد آدم الرسالة إلى الطاولة. لم يكن يعرف لماذا أعادها إلى مكانها بعناية أكبر مما أخرجها.

فتح الخريطة، على طرفها آثار طيّ قديم، وفي الزاوية ملاحظة صغيرة: «إذا ضعت، اسأل أبي».

خارج النافذة كانت شاحنة نقل تمر ببطء في الشارع، ويهتز معها زجاج الإطار القديم. كان الوسيط العقاري قد اتصل صباحاً يسأله إن كان يستطيع تثبيت موعد التصوير للبيت. قال آدم: «بعد أسبوع، إذا انتهينا من بعض الإصلاحات». في الحقيقة لم يكن قد قرر ما الذي يحتاج إلى إصلاح، لكنه عرف الآن أن الجدار المفتوح لن يصلح أن يظهر في الصور.

قالت ليلى:

— سنبيع البيت، أليس كذلك؟

لم تضع في صوتها اتهاماً. كانت تريد أن تعرف فقط، لعلها ترتب ما بقي من حياتها على جواب واضح.

— هذا ما اتفقنا عليه.

— اتفقنا أن نرى وضعه أولاً. أنت قلت إن التقييم ممكن يتغير إذا ظهر ترميم كبير.

نظر إلى الفتحة. كان حولها غبار كثير، وحافة الطابوق غير مستقرة، والورق على الطاولة لا يحتمل هواء المروحة. أشياء قابلة للحساب، على الأقل.

— سأحتاج أياماً إضافية. في هذا الجدار فراغ غير موثق، ويمكن أن تكون هناك مشكلة رطوبة. الأفضل أن أفحصه قبل التصوير.

لم تبتسم ليلى، ولم تكشف أنها فهمت الحيلة. قالت:

— افحصه. بس لا تخلي البيت يأكل وقتك كله.

ثم عادت إلى المطبخ. بقي آدم في الغرفة، والصندوق مفتوح أمامه. لم يكن البيت قد طلب منه البقاء، ولم يقل أبوه شيئاً من الورقة. كانت هناك فقط جملة كتبها طفل لم ينجح في الوفاء بها، ورجل في الثامنة والثلاثين يحاول أن يقرر أيهما أكثر صدقاً.

الجزء 1 · جدار الطفولة

الفصل الثاني: بيتٌ يتذكّر

◆ —— ◆

«.للأمان صوتٌ خافت، يشبه مفتاحاً يدور في بابه»

في صباح اليوم التالي كتب أعمال البيت على ظهر فاتورة؛ فالقائمة طريقته في تأجيل ما لا اسم عملياً له.

على الجدار ظهرت خطوط قلم رصاص تقيس أطواله في طفولته، بتواريخ كتبها أبوه. مرر يده عليها من دون أن يمحوها. كان يقيسه كل عيد تقريباً، رغم أن آدم لم يطلب ذلك. لم يكن كثير الكلام، لكنه عرف كيف يلاحظ ما لا يقوله ابنه. إذا بقي الضوء مضاءً في الممر، ترك الباب

مواربةً، وإذا تردد آدم أمام غرفة النوم قال: «تعال ساعدني أعدّ البراغي». لم يكن السؤال يحرجه، والعمل الصغير يتيح له أن يجلس قرب أبيه من دون شرح.

كان الأب يقدّس الأمان على طريقته. يثبت رفاً قبل أن يضع عليه كتاباً، يحتفظ بنسخة إضافية من مفتاح الباب، يغلق صنبور الماء قبل النوم ويتفقده مرة ثانية. وكان يطمئن إلى الدعاء بعد الصلاة، ثم يطوي سجادته بعناية. لم يرَ آدم في ذلك خوفاً من الحياة؛ رآه، وهو صغير، قانوناً يجعل الحياة أقل مفاجأة.

في الليلة التي انقطع فيها التيار وهو في الثامنة، كان آدم في المطبخ. سقط الظلام دفعة واحدة، وسمع من الغرفة صوت كأس يتكسر. لم يصرخ، لكنه لم يستطع أن يتحرك. حين أضاء أبوه مصباحه اليدوي، وجد ابنه واقفاً قرب الثلاجة، مضموم الكتفين، يحدّق في الممر. لم يقل له إن الغرفة خالية. وضع المصباح في يده وقال: «أنت امشِ قبلي، وأنا وراءك». قطعا المسافة القصيرة معاً. بعد ذلك جمعا الزجاج المكسور، وصنع الأب من الحادثة عملاً لا حكاية.

لكن الظلام لم يختفِ بذلك.

كان يرجع كلما بقي وحده في غرفة، لا كوحش يؤمن بوجوده، بل كاحتمال يصعب على طفل أن يقنع جسده بأنه غير حقيقي. كان يتخيل أشياء خلف الستارة، ثم يفتحها نهاراً ويتأكد من لا شيء. تعلّم أن يسخر من نفسه قبل أن يفعل أحد ذلك، وأن يترك الباب مفتوحاً بمقدار كف. أما الوعد المكتوب، فلا يتذكر أنه قاله. ربما أمله أبوه في أن يكون شجاعاً، وربما كتبه آدم ليخفف قلق أبيه، وربما كان يحاول أن يقنع نفسه. الذاكرة لا تقدم دائماً محضراً كاملاً.

دخلت ليلى الغرفة تحمل صينية عليها كوبان وطبق صغير من الخبز المحمص.

— ما زلت تعمل؟

— أحاول أفهم الرطوبة. الجدار من الخارج ناشف.

— وأنت؟

— أنا ماذا؟

وضعت الصينية فوق المكتب الذي فرغ من الكتب.

— من الخارج ناشف؟

ابتسم آدم على نحو خفيف، ابتسامة لم تسعفه في الإجابة. مدت له كوب الشاي، وجلست على حافة السرير. لم تكن ليلى تتعجل الكلام. كانت تعرف أن أخاها يصمت حين يبحث عن جواب، لا حين ينوي إخفاءه.

— أتذكرين هذه الخطوط؟ سألها.

— كنت أكرهها. أبي كان يقيسك ويتركني أنتظر دوري، وبعدين يقول لي: أنتِ طالعة على طول أمك.

— ما كان يقيسك؟

— كان يقول إن البنات ما يحتجن إلى مسطرة. وبعدها قاسني مرة واحدة لما زعلت، وكتب رقمي على الحائط. لكنك أنت كنت صاحب المشروع.

— ربما كان يريد أن يتأكد أني أنمو.

— كلنا كنا ننمو. هو لم يكن يعرف كيف يسألنا عن أشياء ثانية.

لم تقلها بقسوة.

كان أبوها وأبو آدم رجلاً واحداً، يوم مرضت أمهم تولى المواعيد والطعام، وبعد وفاتها واصل صيانة البيت كأن ترتيب الأشياء يعيد بعضها إلى مكانه. حزن كل منهم بطريقته: آدم ابتعد إلى العمل، وليلى زارت البيت كل أسبوع، والأب بقي فيه حتى صار الدرج شاقاً.

— هل كان يعرف عن الرسالة؟ سأل آدم.

نظرت ليلى إلى الورقة على الطاولة.

— لو عرف، فالأغلب أنه ما كان سيخبرنا. كان يحتفظ بالأشياء أكثر مما يتكلم عنها.

— هذا لا يعني أنه قرأها.

— صحيح.

أعجب آدم بأنها لم تملأ الفراغ بتخمين مطمئن. كان يستطيع أن يحتمل «لا نعرف» أكثر مما يحتمل حكاية مصنوعة لتخفيف الحزن.

قلب آدم الصندوق. على غطائه خدش عميق وبقعة شمع جافة، كأنه سُحب على أرض خشنة. لم يكن قديماً جداً، ربما أخفاه هو أو أحدهم. أشارت الخريطة إلى شجرة التوت خلف البيت، حيث بقيت حفرة مستطيلة بعد أن أزالها الأب ليمد أنبوب الصرف. عند طرفها رمز نافذة بمصراع واحد، يشبه نافذة المخزن تحت الدرج.

قال لليلى إنه سيبحث هناك بعد الظهر. قالت إنها سترافقه إن فرغت من موعدها، ثم اعتذرت مسبقاً لأنها قد تتأخر. كانت تعمل في عيادة أسنان وتدير شؤون البيت الذي انتقلت إليه بعد زواجها، ولم تعد أيامها قابلة للفراغ كما في الجامعة. لم يحزن آدم من اعتذارها. كان في صوتها شيء من الثقة، كأن البيت يخصهما معاً حتى لو لم يكونا فيه معاً.

في المخزن وجد أدوات السباكة، وجرائد قديمة، وسجادة صلاة احتياطية. لم يعثر على شيء يطابق الخريطة، لكنه لاحظ آثار الطباشير قرب الجدار، ورسم مربعاً يتجه إلى الباب.

كان أبوه يحتفظ بمفك قصير ملفوف مقبضه بشريط أخضر، يضعه في جيبه إذا خرج لإصلاح شيء عند الجيران.

عند المساء اتصل الوسيط. عرض أن يأتي صباح السبت لتصوير الغرف، وشرح أن البيوت القديمة تُباع أسرع إذا بقيت خالية قدر الإمكان. أجابه آدم بأن هناك فحصاً للرطوبة لم يكتمل، وأن الجدار في غرفة النوم يحتاج إلى تدعيم قبل أن يقرروا شيئاً. لاحظ أن ليلى تسمعه من المطبخ. لم تقل شيئاً حتى أنهى المكالمة.

— لن نستطيع تأجيل القرار إلى الأبد، قالت.

— أعرف.

— وأنا لا أقول إننا يجب أن نبيع غداً. فقط لا تجعل كل مسمار عذراً.

أعاد آدم المفك إلى العلبة. لم يكن كلامها قاسياً، لكنه أصاب موضعاً دقيقاً. النظر إلى البيت من الخارج جعل قرار البيع يبدو نظيفاً: باب يسلّم إلى مشترٍ، أوراق توقع، نصيب يقسم، وغرف فارغة لا تعود تطلب منه شيئاً. أما الترميم فيعيد فتح الحسابات القديمة؛ كم بقي من الشيء الذي يمكن إنقاذه، وكم يلزم أن يترك كما هو.

— سأحدد سقفاً للوقت والكلفة، قال. إذا تجاوزناهما، نبيع.

— هذا كلام مهندس.

— وهو كلام أخيك أيضاً.

— خلّينا نشوف أيهما يقرر.

ضحكا، لكن ضحكتهما لم تبدد كل شيء. بعد أن غادرت ليلى، بقي آدم قرب النافذة. لاحظ أن قفلها لا يستقر في مكانه، فوضع علامة صغيرة على قائمة الأعمال. ثم نظر إلى الغرفة التي كان ينام فيها. لم تعد هذه الغرفة مكان خوفه، ولا مكان أبيه، ولا مكان الرسالة وحدها. كانت غرفة تحتاج إلى ترميم؛ وهذا، في الوقت الراهن، وصف يستطيع أن يعمل به.

الجزء 1 · جدار الطفولة

الفصل الثالث: ما يتركه الحبر

◆ —— ◆

«.ما نؤجله لا يبقى ساكناً، يمشي معنا إلى المطبخ»

في الأيام التالية، صار آدم يستيقظ قبل المنبه. يشرب القهوة من كوب أبيه ذي الحافة المتشققة، ثم يفتح النوافذ واحدة بعد أخرى، لا لتهوية البيت فقط، بل ليتأكد أن كل نافذة ما زالت تنفتح. كان يقول لنفسه إن ذلك جزء من المعاينة. وفي دفتر القياسات دوّن نسب الرطوبة، وسجّل أماكن الشقوق، ثم أضاف، بخط أصغر: «النافذة الشرقية تتعثر عند الإغلاق». بدا له أن الكآبة تجعل البيت أقل قدرة على مفاجأته.

وضع رسالة العاشرة داخل غلاف شفاف، لا لحمايتها من الرطوبة فقط، بل حتى لا يضطر إلى قراءتها في كل مرة يمر فيها أمام الطاولة. لم ينجح. كانت الجملة الأخيرة تظهر من خلال البلاستيك، كأن الورق يعرف كيف يجذب عينه. أعدك ألا أخاف من الظلام أبداً. في صباح اليوم الثالث فتح الغلاف، وقرأها مرة أخرى. لم يشعر بالشجاعة، ولم يشعر بالخجل. أحس أن الطفل كاتب الرسالة كان جاداً في وعده، وأن الرجل الذي كبر لا يملك حق السخرية منه.

جاءت ليلى في اليوم الرابع ومعها علبة طعام. وجدت آدم على الأرض قرب الجدار، يفحص الطابوق المكشوف بمسبار صغير.

— أرسلت لك رسائل وما رديت.

— كان الهاتف في الغرفة الثانية.

— منذ متى صار الهاتف يحتاج غرفة خاصة؟

— منذ ما بدأت أنتِ تراقبينني.

وضعت الطعام على الطاولة، ولم تأخذ الطعم.

قالت إن الوسيط اتصل بها هذه المرة، وسأل إن كان موعد التصوير لا يزال قائماً. أجابته بأنه مؤجل حتى يراجع آدم تقرير الترميم. لم تقل إنها كذبت؛ كان هناك تقرير فعلاً، ولم يكن موعد التصوير قد أُلغي، فقط لم يحدده أحد.

— لا أريد أن أبيع وأنا غاضبة، قالت. ولا أريد أن أحتفظ بالبيت لأننا نشعر بالذنب.

— لا أشعر بالذنب.

— أنا لم أقل إنك تشعر.

أدار آدم المسبار بين أصابعه. كانت ليلى محقة في أنها لا تعرف ما يشعر به، وربما كانت محقة في أن ما يفعله لا يخص شعوره وحده. أجاب:

— لا أريد أن نستعجل فقط لأن كل شيء صار متعباً.

— وأنا لا أريد أن نستعجل. لكن أبي لم يطلب منا أن نترك البيت كما هو. لو كان يعرف أن السقف يسرب، كان سيصلحه، لا يجلس يحدق فيه.

كانت تتكلم عن أبيهما، لكن آدم سمع في كلامها شيئاً آخر: أن بقاءه ليس واجباً، وأن الحزن لا يفرض عليه أن يعيد بناء حياته حول بيت قديم. لا بد أن ليلى احتاجت إلى أن تقول ذلك لنفسها أيضاً. ابتسمت وهي تفتح العلبة.

— أكلت؟

— قهوة.

— القهوة ليست غداء.

— أعرف.

— أكيد تعرف. أنت تعرف كل شيء عن المباني.

أكل معها، وفي منتصف الطعام انقطع التيار للحظات.

لم تكن عتمة كاملة؛ الضوء الرمادي من الشباك بقي ظاهراً، لكن المطبخ خفت. توقف آدم عن المضغ. لثانية واحدة، لم يكن في الثامنة والثلاثين. لمح الممر القصير، والباب الموارب، ورأى هيئة أبيه في آخره تحمل مصباحاً. لم يتوقع أن يصاب بالذعر، ولم يصبه الذعر تماماً؛ كان مجرد انقباض قديم وصل إلى جسده قبل أن يلحق به عقله.

قالت ليلى بهدوء:

— الكهرباء بس. أنا هنا.

لم تمد يدها إليه، ولم تسأله إن كان بخير. فتحت درج المطبخ وأخرجت مصباحاً صغيراً، ثم أشعلته. عاد التيار بعد أقل من دقيقة. كان المصباح في يدها مطفأً، لكنها وضعته على الطاولة إلى جوار الرسالة.

— أبي كان يحتفظ بمصابيح بكل غرفة، قالت.

— تحسباً.

— نعم. كان يكره أن نبحث في الظلام.

تأمل آدم المصباح. كان أبوه قد صنع نظاماً صغيراً للعالم: مفتاح هنا، بطارية هناك، باب لا يغلق كاملاً. لم يكن ذلك قادراً على منع الفقد ولا المرض ولا الأيام التي لا تتصلح، لكنه جعل العيش ممكناً. ربما لهذا كتب آدم الوعد. لم يكن يتعهد أن يصبح بلا خوف؛ كان يريد أن يكبر إلى رجل يحمل مصباحاً في الظلام، كما رأى أباه يفعل.

بعد الطعام فتشا المساحة خلف الرفوف، فلم يجدا سوى أنبوب ماء قديم وآثار طباشير باهتة. لم تكن الخريطة تقود إلى كنز بقدر ما تقود إلى لعبة منسية.

— ربما كانت الخريطة لعبة، قالت ليلى.

— أغلب الظن.

— هذا ما ظننته من البداية.

— أنت قلتِ إن أبي ربما عرف.

— قلت ربما. لا تحاسبيني على الاحتمالات.

— أنا ما حاسبتك.

كانت نبرته أخف من كلامه. جلست ليلى على عتبة المخزن، وأراحت ظهرها إلى إطار الباب.

— أتذكر يوم نقلنا شجرة التوت؟ سألت. كنت تزعل لأن أبي قصّها.

— قال إن جذورها تضغط الأنبوب.

— وأنت قلت إن الشجرة ما سوت شي، وإن الأنبوب هو اللي دخل بطريقها.

— كنت في العاشرة؟

— أظن. ويمكن أصغر. جلست يومها جنب الشجرة وأنا أبكي، وأبي حفر حولها حتى صار التراب كله على ملابسه. حاول ينقلها إلى آخر الحديقة، لكن الجذر انقطع. بعدين قعد معك على الدرج إلى أن هديت.

كانت الصورة بعيدة، لكنها حين عادت حملت تفاصيل أكثر من الرسالة: يد الأب الملطخة، حذاؤه الموحل، وليلى الصغيرة تراقب من عتبة المطبخ. تذكر أن أباه لم يشرح له وقتها أن الأشجار تموت لأسباب عملية أحياناً، ولا أن الأنابيب لا تتفاوض مع الجذور. قال فقط: «كان لازم نجرب». لم يكن عنده تفسير أفضل، فاختار أن يجرب.

— يمكن كان يعرف عن الرسالة، قال آدم. يمكن شافها، وما قال لي.

— يمكن.

— لو عرف، ليش خبّاها؟

— يمكن ما خبّاها. يمكن حطها هناك حتى لا تضيع.

يمكن كانت لعبة. يمكن نسيها. أبوك ما كان صندوقاً مغلقاً يا آدم، لكنه كان يعرف أن بعض الأشياء ما تحتاج شرحاً كل يوم.

لم يرد. عاد إلى الرسالة في ذهنه، إلى الحروف الصغيرة، وإلى المفتاح في الرسم. كان ذلك الطفل يظن أن أباه قادر على منع الضياع. ربما لم يكتب الرسالة ليحفظ البيت، بل ليقول لأبيه إنه فهم ما يريده منه. والآن، بعد كل هذه السنوات، بقيت الكلمات تنتظر قارئاً لا يطلب منها جواباً واحداً.

في اليوم السادس، اتصل النجار ليخبره أنه يستطيع المرور لإصلاح إطار النافذة. وافق آدم، ثم أعاد النظر في قائمة الترميم. اتصل بالوسيط بنفسه وقال إن التصوير يتأجل أسبوعاً، إلى أن ينتهي من تدعيم الجدار وفحص السقف. لم يذكر الصندوق، ولم يشر إلى الرسالة. قال فقط إن البيت يحتاج إلى معاينة دقيقة.

حين أغلق الهاتف، شعر بأنه قال الحقيقة واستعملها ستاراً في الوقت نفسه. لم يكن ذلك كذباً، لكنه لم يكن الجواب كله. اتصلت ليلى بعد دقائق. سمع في صوتها أنها كانت تنتظر رده.

— أسبوع واحد؟

— أسبوع واحد.

— وبعده نقرر؟

— وبعده نقرر ما الخطوة التالية.

قالت: «حسناً»، ثم أخبرته أنها ستزور البيت في نهاية الأسبوع لتساعده على فرز الأغراض. لم تطلب وعداً بالبيع أو البقاء.

بدا له أن هذا أفضل ما يستطيعان فعله لبعضهما: ألا يحمّل أحدهما الآخر قراراً نهائياً قبل أن يصبح ضرورياً.

في تلك الليلة، أعاد آدم الصندوق إلى طاولة غرفة النوم، بعد أن نظفه من الصدأ بقطعة قماش جافة. وضع الرسالة والخريطة في غلافين منفصلين، وأغلق الغطاء. لم يضعه في الجدار ثانية؛ تركه ظاهراً، كأنه لا يريد أن يتظاهر بأن ما خرج منه عاد إلى مكانه.

وقبل أن يطفئ ضوء الممر، انتبه إلى أثر خدش تحت قاع الصندوق. انحنى ليرى ما التصق به. كانت قصاصة رقيقة، مطوية إلى نصفين، أصغر من أن تُلاحظ وهي داخل القماش. فتحها على مهل. لم تكن رسالة كاملة؛ مجرد ورقة عنوانها بخط أكبر، واثق هذه المرة:

«إلى آدم، عندما تصير في السابعة عشرة».

توقف عند العنوان. لم يعرف إن كان الخط خط أبيه أو خطه. تذكر السابعة عشرة: الرحلة التي لم يقم بها، والمشادة التي لم يعتذر عنها، والليلة التي خرج فيها من البيت متأخراً.

أعاد القصاصة إلى الصندوق، لكنه لم يغلق الغطاء. ظل واقفاً في عتمة الممر، والضوء ينساب من غرفة النوم إلى قدميه. كان يستطيع أن يشعل المصباح؛ المفتاح إلى يمينه. وكان يستطيع أن يتركه مطفأً، ويعود في الصباح. لم يكن الوعد القديم يطالبه بشيء هذه المرة. ومع ذلك بقي هناك، عند العتبة، يستمع إلى البيت وهو يستقر حوله، وإلى الورقة التي لم يفتحها بعد.

الجزء 2 · شقوق المراهقة

الفصل الأول: ما يختبئ في الجدار

◆ —— ◆

«ليس كلُّ ما نُغلق عليه قد نسيَ الطريق إلينا».

أمضى آدم عمره يتعلم أن الشقوق لا تقول كل شيء؛ بعضها أثر رطوبة، وبعضها حركة في الأساس، وبعضها خطّ خلّفه مسمار أُخرج على عجل. لا بد من الإصغاء قبل مدّ اليد إلى الملاط.

في صباح الثلاثاء، وقف أمام واجهة خان السراي المهجور، يمرر إصبعه على خط متعرج صعد من العتبة إلى قوس النافذة. كان الخان صغيراً، لكنه أحبّه منذ أول زيارة. عروق الخشب في بابه تشبه عروق يد أبيه، والحجر المسوّد يحتفظ بدفء لا يراه إلا إذا أتى قبل الناس.

رن هاتفه. ظهر اسم طارق، فبقي إصبعه فوق الشاشة لحظة أطول مما يلزم.

«أنا قريب من الخان. عندك عشر دقايق؟»

كتب آدم: «تعال». ثم مسحها وكتب: «نعم».

لم يكن اختلاف الكلمتين مهماً، لكنه رأى في المسافة بينهما عادته القديمة: أن يهيئ عبارته كأنها باب يجب أن يغلق بإحكام قبل أن يفتحه.

جاء طارق بعد دقائق، يحمل كوبين من الشاي. لم يتغير كثيراً؛ خفّ شعره عند الجانبين، واستقرت حول عينيه خطوط لا تليق بصورتهما القديمة في الجامعة. كان يمشي كما اعتاد، بخطوة سريعة كأنه تأخر عن موعد حتى حين لا يكون لديه موعد.

قال وهو يناوله كوباً: «من دون سكر. بعدك تتذكر؟»

«أتذكر أشياء كثيرة.»

«إي، أعرف.»

لم يبتسم أحدهما. دارا حول العبارة مثل عاملين حول حجر مشكوك في ثباته. اختار آدم أن يبدأ من العمل.

«وصلني ترشيحك لفريق العمل على مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم. أنا ضمن الفريق الميداني، واسمك موجود في قائمة من سنحتاج إليهم لإعداد المقترح.»

«أنا أعرف. اتصلوا بي أمس.»

«قلت لهم إننا نحتاج إلى اجتماع قبل ما يثبتوا توزيع المهام.»

نظر طارق إلى الواجهة. «اجتماع عن الخان، لو عن مشروع المحطة؟»

ضاق فك آدم. لم يكن يتوقع أن يسمع الاسم بهذه السرعة.

مشروع المحطة كان قبل سبعة عشر عاماً، يوم كانا في الحادية والعشرين. مبنى بريد قديم قرب السكة، اقترحا تحويله إلى مكتبة وورشة تدريب. سمّياه «بيت العابرين»، وكان الاسم من اقتراح آدم، والخطة من عملهما: أروقة على الفناء، مقاعد من الخشب المستعاد، وغرفة يعلّم فيها الحرفيون الطلاب ترميم الأشياء. تقدما إلى منحة شبابية، وتحدثا عن المشروع كثيراً. ثم سقط قبل العرض النهائي بأيام. قال آدم لنفسه إن طارق أخطأ في تسليم الملف، وإنه لم يدافع عن الفكرة كما ينبغي.

بعد سنوات صار يقول إنه أفشل المشروع عمداً، أو تركه ينهار لأنه لم يؤمن به. لم يتذكر متى استقرت الرواية بهذه الصيغة؛ عرف فقط أنها صارت سهلة الاستدعاء.

قال آدم: «لا أريد أن أفتح حساباً قديماً.»

«وأنا ما جيت أفتح حساب. لكنك ربطت المشروعين.»

«لأنك فعلت ذلك.»

ظل طارق ساكتاً، ثم وضع كوبه على حافة حجر عريض. «أنا فعلت أشياء كثيرة وقتها. بعضها كان غبياً. بس مشروع المحطة ما سقط بالطريقة اللي ترويها.»

«هذه روايتك الآن؟»

«هي روايتي من البداية. بس أنت ما سألتني عنها.»

هبّت ريح خفيفة، فاهتزت ورقة الحماية البلاستيكية التي غطت جزءاً من الباب. في الداخل كان أحد العمال ينظف طبقة الطلاء المتقشرة. صوت الفرشاة على الخشب بدا كاحتكاك ورق قديم.

قال آدم: «أنت لم تكن موجوداً حين اتصلوا بي.»

«أي اتصال؟»

«اتصال المنحة. قالوا إن النسخة التي أرسلتها ناقصة، وإن العرض لم يعد صالحاً.»

«لم يقل أحد ذلك.»

«أنا سمعته.»

«سمعت من؟»

فتح آدم فمه، ثم أغلقه. وجّه عينيه إلى العقدة السوداء في الخشب. في تلك السنوات، كان كل تفصيل يمتزج بآخر: صخب الهاتف في سكن الطلبة، حرارة وجهه، باب قاعة العرض، يد طارق على كتفه، وربما صوت موظفة تقول شيئاً عن موعد. حافظ ذاكرته على الشعور أكثر مما حافظت على الكلمات.

قال: «انتهى الموضوع. لا أريد إعادة المحاكمة.»

«وأنا لا أريد أن أكون كل مرة الشخص الذي خذلك. إذا اشتغلنا على خان السراي، لازم نعرف على الأقل أين نقف.»

كان يمكن لآدم أن يرد بعبارة تنهي الحديث. كاد يقول إن الماضي لا يهمه، وإن طارق يمكنه الانسحاب من الفريق. لكنه رأى في صدره تلك الحركة القديمة: انقباضاً سريعاً، كأن أحداً سحب ستارة على نافذة. تذكر رسالة لم يرها منذ أيام، داخل صندوقه الخشبي الصغير: خطه في السابعة عشرة، مائلاً وغاضباً، وجملة كتبها بعد جرح لا يريد أن يسميه. كان قد عثر على الصندوق عقب وفاة أبيه، ثم تركه مفتوحاً قرب مكتب الترميم. لا يقرأه كل يوم، لكنه صار يلاحظ وجوده كما يلاحظ المرء شقاً جديداً في حائط بيته.

قال بعد صمت: «خلينا نشوف الأوراق.»

رفع طارق حاجبيه. «أي أوراق؟»

«ملف المحطة. إذا بقي عندك شيء.»

«بقي. مو لأنه ثمين، لأنك تركت نسختك في بيتنا، وأنا احتفظت باللي أرسلناه.»

كان في نبرة طارق شيء لا يطلب تصديقاً ولا يتنازل عنه. شعر آدم بانزعاج لم يعرف أكان موجهاً إليه أم إلى ذلك الهدوء. اتفقا أن يلتقيا في اليوم التالي في مكتب طارق، في الطابق الثاني من مبنى تجاري قديم قرب شارع الرشيد.

في المساء، عاد آدم إلى البيت فوجد ليلى جالسة على الأرض قرب الصندوق. كانت في الرابعة والثلاثين، ترتدي قميصاً واسعاً وتفرز الرسائل في أكوام صغيرة: ورق مدرسي، ظرف لم يُرسل، قصاصات رسم، وأوراق كان آدم يكتب عليها إلى نفسه ثم يطويها.

قالت من دون أن ترفع رأسها: «أنت تترك الأشياء بنصف ترتيب، ثم تقول إنك ما تحب الفوضى.»

«هذا ترتيب مؤقت.»

«كل شيء عندك مؤقت، إلى أن يصير له عمر.»

ابتسم رغماً عنه وجلس عند طرف السجادة. كانت ليلى تعرف كيف تسمي عاداته من غير أن تجعلها حكماً. رفعت ورقة صغيرة وقالت: «هذه من عمر سبعة عشر؟»

قرأ من فوق كتفها: «لا أريد أن أكون الشخص الذي ينتظر اعتذاراً لن يأتي.»

قالت: «كنت درامياً.»

«كنت مراهقاً.»

«ما زلت أحياناً.»

تسلل ضحك قصير بينهما، ثم أعادت الورقة. بقيت في يدها رسالة مطوية، عليها بقعة حبر زرقاء. لم تفتحها. كان آدم يعرفها من شكل طيّتها، مع أنه لم يرها منذ أعوام.

«لقيت هذه بين دفاتر المدرسة. فيها الجملة.» قالتها ليلى بهدوء. «أتركها لك؟»

مد يده إليها، لكنه لم يأخذها فوراً. كانت الجملة التي عرفتها ليلى أيضاً، يوم أراها إياها وهو غاضب، قبل أن يخفي الرسالة ويقول إنه كتبها من أجل تمرين أدبي. قال بصوت أخفض: «نعم.»

أخذها. لم يفتحها.

على الوجه الخارجي كتب بخط أشد ضغطاً: «إلى آدم حين ينسى». وضعها في جيبه، ثم نظر إلى الصندوق. لم يكن قد نسيها تماماً؛ كان قد تعلّم كيف يتجاوزها بسرعة. وفي اليوم التالي سيجلس أمام طارق، ومعه تاريخ لا يعرف أي نسخة منه ستبقى واقفة.

الجزء 2 · شقوق المراهقة

الفصل الثاني: نسخة العرض

◆ —— ◆

«.قد تسبقنا الحقيقة إلى الطاولة، لكننا نختار متى نجلس»

كانت غرفة طارق ضيقة، وفيها مكتب خشبي تؤدي أدراجه وظيفة الأرشيف والمخزن معاً. فوق الرفوف مجسمات مبانٍ صغيرة، وصور لواجهات سابقة، وعلبة معدنية مكتوب عليها «مسامير متنوعة». كان في الجدار أثر مستطيل أفتح من لونه؛ صورة أزيلت وبقي مكانها محفوظاً من الغبار.

استقبل آدم بعبارة: «تفضل، دكتور ترميم.»

«لا تنادني هكذا.»

«ما عدت تحب الألقاب؟»

«ما أحب اللي يخليني أبدو أكبر مما أنا.»

«إذن أنت بخير.»

جلسا. لم يقدّم طارق ضيافة، ولم يطلب آدم منها. فتح درجاً سفلياً، وأخرج ملفاً كرتونياً حافته ممزقة. وضعه بينهما، لا قريباً من أحدهما ولا بعيداً عن الآخر.

«هذا كل ما بقي عندي. يمكن أن فيه أشياء تزعجك.»

«أنا طلبته.»

«أعرف.»

بدأا بالوثائق الإدارية: استمارات المنحة، قائمة المواد، ورقة ملاحظات من لجنة الفرز. كان خط آدم في معظم الصفحات واضحاً متوازناً، حتى إنه تعرّف إلى نفسه فيها كأنه يرى صورة قديمة لشخص يثق به. أما الملاحظات الجانبية فكانت بخط طارق، سريعاً، مليئاً بالسهام والاختصارات.

وجد آدم ورقة تتضمن قائمة من ست نقاط. بجانب النقطة الرابعة، «العرض أمام اللجنة»، كانت كلمة «آدم» مشطوبة، وتحتها «طارق؟». رفع عينيه.

«أنت غيّرت المتحدث.»

«نعم. لأنك طلبت مني ذلك.»

«لم أطلب.»

«في الليلة السابقة.»

«كنت أحاول تعديل النص.»

«قلت إن صوتك يختنق إذا تكلمت أمامهم.»

توقف آدم عند الصفحة. ظهر في ذاكرته قبو السكن، أكواب القهوة، مصباح متقطع، وطارق يقرأ بصوت عالٍ من المسودة بينما هو يقف عند النافذة. لكنه لا يتذكر أنه تنازل عن العرض.

أو ربما يتذكر ولا يريد تثبيت الأمر. حرّك الورقة نحوه.

«هذا لا يثبت شيئاً. كنت مريضاً يومها.»

«ما قلت غير ذلك.»

أخرج طارق ظرفاً شفافاً. داخله ذاكرة إلكترونية قديمة، ونسخة مطبوعة من رسالة بريد. قال: «الموقع القديم للمسابقة أقفل من زمان. أنا طبعت الرسائل يومها لأنهم طلبوا تأكيد الاستلام. هذه رسالة اللجنة، وهذه ردّك.»

قرأ آدم اسم المرسل وتاريخ الرسالة. ثم قرأ السطر الأول، ولم يكمل.

«اقرأها كلها.»

«لا تأمرني.»

«ما آمر. أقول اقرأها، لأنها موجودة.»

كانت الرسالة من منسقة البرنامج. تؤكد وصول النسخة الأولى، وتشير إلى أن العرض النهائي سيكون في الساعة العاشرة صباح الخميس، وأن الفريق يستطيع تحديث الشرائح حتى مساء الأربعاء. لا شيء عن نقص الملف أو رفضه. في الأسفل، رسالة آدم: «أعتذر عن الاستمرار في العرض. لا أستطيع أن أقدّم المشروع كما ينبغي، والأفضل أن يُسحب اسمي. لا أريد أن أكون سبباً في إحراج الفريق». وبعدها رسالة طارق: «لا تسحب اسمك الآن. نقدر نبدّل الأدوار. خلّيني أتكلم، وأنت جاوب عن التفاصيل إذا احتجنا. الفكرة فكرتنا الاثنين».

لم يرفع آدم رأسه. في الورق، كانت كلماته أصغر من وقعها. لم تكن رسالة صاخبة؛ لا غضب فيها ولا اتهام. كان الارتباك فيها مهذباً، وهذا ما جعلها أشد صعوبة. قرأ التاريخ مرة أخرى. قبل العرض بيوم.

«لم أرسلها.»

«أرسلتها.»

«أعني لا أذكر أني أرسلتها.»

«هذا غير الشيء نفسه.»

سحب آدم يده من فوق الملف. «أنت احتفظت بها كل هذه السنين لتأتي بها الآن؟»

«احتفظت بها لأنني كنت أجمع شغلنا.

ما توقعت أننا سنجلس عليها بعد سبعة عشر سنة.»

«كان بإمكانك أن تكلمني وقتها.»

«كلمتك. اتصلت بك في الصباح. قلت لي إنك لن تأتي.»

«قلت إنك ستقدم.»

«قلت إني سأحاول. وقدمت.»

«إذن لم يكن المشروع مهماً لك كما كان مهماً لي.»

ارتسم على وجه طارق شيء يشبه الضيق، ثم انطفأ. «لا تحول خوفي إلى دليل على أنني ما اهتميت. أنا أيضاً كنت خائفاً. دخلت القاعة وحدي، وشرحت مشروعاً ما كنت واثقاً من أن اللجنة ستفهمه. لخبطت في الميزانية، وقلت إننا سنعيد استخدام الخشب أكثر مما تسمح به السلامة. أخذنا تقييماً متوسطاً. ما فزنا. وبعدها زعلت منك لأنك تركتني أواجههم وحدي، وما قلتها لك بوضوح. قلت بدلها: لو كنت جيت كان صار خير. هذا كان مؤذياً. بس ما خربت الملف.»

لم يرفع طارق صوته. لم يجعله ذلك أرحم. كان آدم يسمع الجمل ويسعى إلى مكان يضعها فيه، لكن ذهنه لم يرد أن يبدّل الرواية دفعة واحدة. خطأ طارق في الميزانية موجود. تذمره بعد العرض موجود. انسحاب آدم موجود أيضاً، مكتوباً بخطه، لا تترك الصفحة مجالاً للالتباس.

قال: «لماذا لم تذكر هذه الرسالة في أي مرة؟»

«ذكرتها. قلت لك مرة إن عندي نسخاً. قلت لي لا تعيد الموضوع. وبعدين صارت قصتنا، إذا جلسنا مع أحد، أنك كنت مريضاً وأنا خبصت العرض. ما كنت أريد أحرجك قدام الناس.»

«كان عليك أن تصححني.»

«يمكن. وكان عليك أن تسألني قبل ما تقرر أنني خذلتك.»

في تلك اللحظة، لم يعد الملف مجرد ملف.

بدا له كجدار كشف عن فراغ خلفه، الحكاية التي بناها فوقه لم تكن كذبة متعمدة تماماً، لكنها لم تكن حقيقة بريئة أيضاً. كانت هناك حركة صغيرة بعد الرسالة: خوفه من أن يراه الآخرون عاجزاً. ثم خطوة أخرى، أن يبتعد. وبعدها سنوات من تلوين الذاكرة بما يجعل الابتعاد كأنه قرار فرضه شخص آخر.

تذكر ما كتبه في السابعة عشرة: «لن أسمح لأحد أن يراني ضعيفاً مرة أخرى، سأكون دائماً مستعداً لكل شيء». كانت الجملة أشبه بخطة دفاع عسكرية. في ذلك العمر، لم يكن قد عرف أن الاستعداد الدائم قد يكون قفلاً، وأن المرء يستطيع أن يستعد طويلاً حتى يفوته الباب المفتوح.

قال: «كنت أظن أنني أتذكر أنك أخطأت في إرسال الملف.»

«أنا أخطأت بأشياء ثانية. بس مو بهذا.»

«لا أعرف متى صار عندي هذا اليقين.»

«يمكن لما صار أسهل من أنك تقول خفت.»

كانت العبارة دقيقة أكثر مما احتمل، فنهض آدم. تجول خطوتين في الغرفة، وتوقف أمام المجسمات. أحدها كان لواجهة حجرية مشققة، وفيها ترميم بلون أفتح من الأصل.

قال طارق من خلفه: «ما أقول إنك تعمدت تأذيني. لكنك آذيتني. لما حكيت للناس إنني أفشلت المشروع، صرت مضطراً أشرح كل مرة أنني لم أفعل. وبعد فترة بطلت أشرح. هذا خلاني أبتعد عنك، مو لأنني قديس وأسامح بصمت. لأنني تعبت.»

استدار آدم. «كنت أقولها لأنني صدقتها.»

«أعرف.»

«وهذا ما يعفيها.»

«لا.»

كان في «لا» هذه مساحة أوسع من خلافهما؛ لا إعفاء ولا إدانة كاملة. جلس آدم من جديد. اعتذر لم يقلها بعد.

لم تخرج من فمه بسهولة، كأنها تصطدم بعبارات احتياطية محفوظة: ربما، لكن، أنت أيضاً. رأى طريقها يتشكل، ثم حاول أن يمهّد له بعبارة حذرة.

«أنا آسف إذا—»

قاطعه طارق: «لا تبدأ بإذا.»

سكت آدم. كان يستطيع أن يغضب من التوجيه، لكنه رأى أن طارق لم يطلب اعتذاراً مثالياً. فقط طلب ألا تُخفَّف مسؤوليته قبل أن تُقال.

أعاد المحاولة: «أنا آسف لأنني قلت إنك أفشلت المشروع، ولأنني كررت ذلك سنوات. أنا انسحبت. كنت خائفاً من أن أبدو مرتبكاً، وبدل ما أقول لك هذا، تركتك تواجه العرض وحدك، وبعدها صنعت رواية أقدر أعيش معها. هذا اللي أقدر أقوله الآن.»

تأمل طارق وجهه. لم يبتسم ولم يصفّق له. قال: «جيد أنك قلته. أنا مو جاهز أرجع مثل قبل.»

«ما طلبت.»

«أعرف. بس بعض المرات تحاول تصلح بسرعة، حتى ما تضطر تبقى مع الشيء وهو غير مصلح.»

خفض آدم عينيه. في مهنته كان يعرف أن الملاط يحتاج زمناً كي يجف، وأن الاستعجال يترك وراءه لوناً مختلفاً. لم يقل إن الأمر لا يهمه. قال: «ما أعرف كيف أتركه من غير ما أهرب.»

أجابه طارق: «ابدأ بأن ما تشرح لي كل شيء. اسألني شنو أتذكر، وبعدين اسمع.»

لم يتفقا على العمل في الخان فوراً. اتفقا على إرسال ملفات المعاينة إلى منسقة المسابقة، وعلى مكالمة قصيرة في نهاية الأسبوع لمراجعة توزيع المهام في الفريق. كان اتفاقاً صغيراً، عملياً، لا يتظاهر بأن جرحاً قديماً صار ذكرى لطيفة. وعندما خرج آدم، بقيت نسخة العرض على الطاولة بينهما.

الجزء 2 · شقوق المراهقة

الفصل الثالث: أن تقول ما تعرف

◆ —— ◆

«الاعتراف ليس نافذةً واسعة؛ أحياناً يكفي أن نرفع المزلاج.»

في الطريق إلى المنزل، لم يشعر آدم بخفة. كان قد توقع، من غير أن يعترف بذلك، أن ينتهي الكلام بجملة تضع الماضي في مكانه: اعتذار متبادل، مصالحة طويلة، أو حتى مزحة قديمة. لكن ما حدث كان أقل اكتمالاً وأكثر صدقاً. طارق قال إنه تعب. وآدم قال إنه خاف. بقيت بينهما أشياء لم تُحل، وصار عليهما أن يتركاها ظاهرة بدل أن يغطياها بطلاء جديد.

وجد ليلى في المطبخ تقطع الخبز. نظرته الأولى إليها كانت طلباً غير منطوق أن تسأله كيف سار اللقاء، ثم أزعجه أنه ينتظر منها أن تفتح الطريق. غسل يديه، وجلس.

قالت: «كيف كان؟»

«وجدنا الرسالة.»

لم تتوقف عن تقطيع الخبز. «اللي من طارق؟»

«نسخة البريد. أنا انسحبت من العرض.»

رفعت رأسها. «تتذكر؟»

«لا. أقرأها وأعرف أنها مني، لكن ما أتذكر اللحظة كاملة.»

«وهذا ممكن.»

«كنت أقول دائماً إن طارق أفشل المشروع.»

«كنت تقولها بثقة.»

«وهل صدقتني؟»

قالت ليلى: «كنت أصدق أنك متألم. ما كنت أعرف من الذي أخطأ.»

أحس بالامتنان، ومعه حرج. «كان يمكنك أن تسأليني.»

«يمكن. لكنك كنت تجعل السؤال يبدو اتهاماً. إذا قلت لك: متأكد؟ كنت ترد كأنني اخترت صفه.»

لم ينكر. لم يكن دفاعه عند طارق وحده؛ كان يطلب من كل شخص يسمع حكايته أن يثبت ولاءه بتصديقها. ما إن يتردد أحدهم حتى يراه خصماً.

قال: «كنت أحاول أن أحمي نفسي.»

«أعرف. بس الحماية إذا طالت، تصير طريقة لإبعاد الناس، مو بس منع الأذى.»

سكتا. وضعت ليلى قطعة خبز في طبقه. لم تشرح له معنى الجملة؛ لم تكن بحاجة. في يوم ما، قبل سنوات، اعتذرت له لأنها ألغت زيارة إلى أبيها في المستشفى. رد عليها يومها بأن لا داعي لتبرير الأمور إذا لم تكن مستعدة لتحمّلها. بعد ذلك صارت تخبره بالحقائق الضرورية فقط. تذكّر الآن أنها لم تكن باردة، بل كانت قد تعلمت أن لا تمد يدها إلى باب يصفق في وجهها.

قال: «أتذكر لما اعتذرتِ عن الزيارة؟»

«أي مرة؟»

«لما كنتِ تشتغلين في المستشفى، وكانت مناوبتك طويلة. قلت لك إنك ما تبين تجين.»

«كنت مرهقة. وأنت قلت إني أتهرب.»

«كنت غلطان.»

أمالت رأسها قليلاً. «أعرف.»

«ما اعتذرت لك.»

«لا.»

قالها من غير اتهام، فصار الصمت بعدها أسهل. أعاد آدم ترتيب الملعقة قرب طبقه. «أنا آسف. ما كان عندي حق أفسر لك شعورك بدلاً منك.»

استأنفت تقطيع الخبز. لم تقل له إن كل شيء بخير، ولم تنفجر باكية. قالت: «شكراً لأنك قلتها. إذا رجعنا للزيارة القديمة، لا أريد أن نعيدها الليلة. أريد أن آكل وأرتاح.»

«طبعاً.»

«وباجر إذا سألتك عن طارق، لا تجاوبني باسم المشروع كله. قل لي شنو صار، مثل ما صار.»

هزّ رأسه.

كانت تلك أيضاً خطوة، صغيرة ومحددة. لا يتحدث عن نواياه الكبرى، ولا يطلب من ليلى أن تمحو أثر الكلام، يحاول أن يروي الواقعة من دون أن يضيف إليها حكماً.

في اليوم التالي زار أستاذه كمال في البيت الذي يسكنه مع ابنته. كان كمال قد درّسه مبادئ صيانة المباني، ثم أشرف على أول مشروع ميداني له. منذ أشهر صار النسيان يبدّل إيقاع أيامه؛ يكرر السؤال أحياناً، ويخلط بين مواعيد الزيارات، لكنه يحتفظ بعين خبيرة تكشف ميل الرف قبل أن يراه سواه. كانت ابنته سلوى قد تركت دفتراً على الطاولة لتسجيل ما يحدث، لا بوصفه حساباً عليه، بل كي تساعده حين تتداخل الأيام.

وجد آدم إياه أمام نافذة تطل على شجرة ليمون. على الطاولة مصباح مكسور، ومفكّ دقيق، وقطعة قماش مطوية. رفع كمال عينيه وقال: «تأخرت.»

«وصلت على الوقت.»

«إذن أنا استعجلت.»

لم يعرف آدم إن كان هذا مزاحاً أو تصحيحاً للذاكرة، ضحك كمال قبل أن يختار جواباً.

جلس آدم وأخرج نسخة من صفحة الرسالة، لكنه لم يناوله إياها. قال: «أستاذ، إذا واحد ظل يروي حادثة بطريقة، ثم اكتشف أن جزءاً منها خطأ، شيسوي؟»

«يسأل: ما الذي أعرفه؟ وما الذي أظنه؟»

«وإذا خلط بينهما؟»

«نفصل الورق عن الكلام. بعدها نسمع صاحب الكلام.»

«وإذا تأخر؟»

«التأخير ما يصلح الخطأ، لكنه ما يمنعك من البدء.»

تأمل آدم وجهه. كان يريد أن يطلب من أستاذه رأياً في طارق، لكنه فهم أن السؤال ليس عن طارق. قال: «أنا انسحبت من مشروع، وبعدها قلت إن صديقي هو الذي أفشله.»

ظل كمال ينظر إليه. لم يبدُ أن الاسم أو تفاصيل الحكاية ثبتت في ذاكرته، وربما لن تثبت. قال: «أنت انسحبت لأنك خفت؟»

«أظن ذلك.»

«الخوف مو عيب. بس لا تخليه يكتب التقرير وحده.»

تحركت يد كمال نحو المصباح، ثم توقفت. سأل آدم: «تحب أصلحه؟»

«أنت أصلح المباني. هذا مصباح.»

«أقدر أجرب.»

«تجرب، إذا ما كسرت أكثر مما تصلح.»

اشتغلا معاً. أدار كمال الغطاء، وأمسك آدم السلك. لم يشرح الأستاذ شيئاً عن الذاكرة، ولم يحوّل الحديث إلى درس. اكتفى بأن طلب منه أن يثبت القطعة قبل تدوير البرغي. وحين انزلق المفك، قال: «على مهلك. القوة مو نفسها الدقة.»

ظلّت العبارة مع آدم حين عاد إلى البيت. أخرج الصندوق الخشبي، ووضعه على المكتب. فتح الرسالة التي تركها في جيبه. قرأ جملة السابعة عشرة كاملة، كما هي: «لن أسمح لأحد أن يراني ضعيفاً مرة أخرى، سأكون دائماً مستعداً لكل شيء».

لم يضحك على الفتى الذي كتبها. تذكر كيف كان يذهب إلى المدرسة قبل الجميع، وكيف حفظ إجابات الأسئلة التي لم تُطرح، وكيف صمت في الأيام التي احتاج فيها إلى أن يقول: لقد آذاني هذا.

لم يكن الوعد بطولة، ولا خطيئة. كان طريقة طفل ليقف بعد جرحه. لكنه كبر معه، وصار يقف أحياناً في طريق كل من يحاول الاقتراب.

أخرج ورقة جديدة. كتب: «إلى آدم في الخامسة والعشرين». توقف. لم يعرف بعد أي سؤال يوجهه إلى ذلك العمر. كتب تحته: «ما الذي كنت تخشاه؟» ثم شطب كلمة «كنت» وكتب «تخافه». بقيت الجملة مفتوحة. لم يملأ الصفحة بتفسير، ولم يكتب نهاية تطمئنه. طواها ووضعها قرب الرسالة الأولى.

رن هاتفه قبل أن ينهض. رقم غير محفوظ، فتركه يرن مرتين ثم أجاب.

«الأستاذ آدم؟ معك ندى من مكتب تنسيق مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم. أحالني إليك طارق، قال إنك ستعمل مع الفريق في معاينة الخان وإعداد المقترح. هل يناسبك أن أرسل إليك ملف المسابقة؟»

نظر إلى الصندوق المفتوح، إلى رسالة السابعة عشرة، وإلى الورقة الجديدة التي لم تكتمل.

«نعم. أرسليه، وسأراجعه.»

«ستصلك التفاصيل من هناء، منسقة اللجنة، صباحاً. هي تتابع أسماء الفريق وجدول الزيارة.»

دوّن اسم ندى واسم هناء في دفتره. لم يقل إنه جاهز لكل شيء، ولم يعتذر عن حاجته إلى أن يفكر. أنهى المكالمة، ثم عاد إلى السطر الموجّه إلى آدم في الخامسة والعشرين. لم يكتب جواباً بعد؛ لكنه، للمرة الأولى منذ زمن، لم يكن واثقاً أن النسخة القديمة من حكايته هي الوحيدة التي تستحق أن تُروى.

الجزء 3 · وهم الشباب

الفصل الأول: الرسالة التي تعرف الطريق

◆ —— ◆

«كنتُ أظنّ أن العمر بابٌ يكفي أن ندفعه بقوة.»

في الصباح الذي انفتح فيه البيت على ضوءٍ أبيض، لم يعرف آدم إن كان الغبار هو الذي جعل الشمس تبدو بعيدة، أم أن السنوات التي أمضاها خارج المكان تركت بينهما طبقةً لا تُرى. وقف في وسط الغرفة التي كانت غرفة أبيه، يحمل فرشاةً عريضة ويحدّق في الجدار. كانت طبقات الطلاء تتكشف تحتها كما تتكشف أوراق دفترٍ قديم: أبيض مصفرّ، ثم أخضر باهت، ثم لون رمادي لم يبقَ منه إلا أثرٌ يشبه ظل نافذة. على الحافة قرب السقف شقّ رفيع، يتفرع إلى اثنين، ثم يختفي خلف الجبس. لم يكن الشق خطراً، لكنه كان يحكي عن ماءٍ عبر هنا ذات شتاء، وعن يدٍ رفعت دلوها ثم نسيت أن تعود لإصلاح الجدار.

أزاح قطعة القماش عن الأثاث، فارتفعت سحابة غبارٍ لامعة في الضوء. كان قد قرر أن يبدأ من الداخل إلى الخارج، كما يفعل في المباني التي يرممها: لا يلمس الواجهة قبل أن يعرف ما تخفيه الغرف. غير أن البيت لم يكن مبنىً فحسب. كلما رفع غطاءً أو فتح درجاً، وجد نفسه أمام تفصيلٍ صغير من حياةٍ ظن أنه يعرفها. مسمارٌ في الباب تركته ليلى حين علّقت عليه حقيبتها المدرسية، علامة قلمٍ على إطار الممر سجّلت طولها في صيفٍ بعيد، ثم خطان متقاربان بخط أبيه، أحدهما لآدم والآخر لها. في الأسفل كتب الأب التاريخ بقلم رصاص، بخطه الضيق الذي يميل إلى اليمين.

كان الصندوق ينتظره على الطاولة، مفتوحاً هذه المرة. الرسائل التي أرسلها آدم القديم إلى آدم الذي صار رجلاً لم تعد تبدو غريبة كما بدت أول مرة.

اعتاد أن يرفع الورقة من طرفها، يتفادى أن يطويها عند أثرٍ رقيق، ثم يجلس ليقرأ صوتاً يعرفه ولا يشبهه تماماً. في القاع وجد مظروفاً عريضاً أكلت حافته بقعةٌ بنية. كتب عليه: «إلى آدم، في يوم التخرج. الخامسة والعشرون». لم يكن قد فتحه منذ اكتشف الصندوق. يومها اختار رسالةً أقصر، ثم توالت الأيام كأن للصندوق ترتيباً يفرضه.

جلس قرب النافذة، وفتح المظروف بحذر. انزلقت منه ورقةٌ مطوية على أربع، وخلفها صورة تخرّج باهتة، يظهر فيها آدم شاباً يبتسم للكاميرا، وقد علق طرف وشاحه على كتفه. كان شعره أطول مما يذكر، وعيناه تحملان ذلك البريق الذي يسبق معرفة المرء بأن الأشياء لا تستجيب لمجرد أنه يريدها.

«إلى آدم الذي سيأتي بعدي،

أكتب إليك وأنا أرتدي قميصاً لا أظنه سيبقى أبيض حتى المساء. قال أبي إنني سأفسده بالطين، فقلت له إن الطين أول ما يجب أن يلمس يد المهندس. ضحك، ولم يقل إنه فخور بي، لكنه أصلح زرّ كمّي قبل أن نخرج. لا أعرف أيّنا كان يخفي ارتباكه أكثر.

اليوم تخرجت. صرت، على الورق، قادراً على بناء ما أراه في رأسي. أريد أن أرمم البيوت التي هجرها أصحابها، لا أن أغطيها بطبقةٍ جديدة وأسمّي ذلك إنقاذاً. أريد أن أجعل الساحات مكاناً يلتقي فيه الناس من غير موعد، وأن أفتح ورشةً يتعلم فيها الصغار كيف يصبرون على الحجر، وكيف يتركونه يتكلم قبل أن يقطعوه. سأجعل لأبي بيتاً لا يتسرب إليه المطر، وللبلى نافذةً تطل على شجرة، وسأبني لنفسي حياةً لا أعتذر فيها عن طموحي.

لن أؤجل شيئاً إلى الوقت المناسب. سأختار المدينة التي أريدها، والعمل الذي يشبهني، والأبواب التي لم يسبق لأحد أن فتحها. سأكون جريئاً، لا لأنني لا أخاف، بل لأن الخوف لن

يكون سيد القرار. وإذا قرأت هذه الرسالة يوماً وقد أصبحت حذراً أكثر مما ينبغي، فذكّرني أن الإنسان لا يُخلق كي يظل واقفاً عند العتبة.

أعدك أن أبدأ قريباً.»

توقف عند الكلمة الأخيرة. لم يكتب الشاب موعداً، ولم يكتب عنواناً، ولم يضع اسماً لمشروعٍ بعينه. كتب «قريباً» كما لو كانت مدينةً مضمونة الوصول. أسند الورقة إلى ركبته، ومرر إبهامه على عبارة «لا أعتذر عن طموحي». لم يسخر من نفسه، ولم يتبرأ من ذلك الصوت. بدا له أن الشاب الذي كتبها لم يكن أحمق؛ كان فقط يجهل أن الوعود أحياناً تتسع أكثر من الحياة، وأن المرء قد يفي ببعضها على هيئةٍ لم يتوقعها.

حين فرغ من غسل يديه، ظهر إشعارٌ في بريده الإلكتروني. كان من هناء، منسقة لجنة «مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم»، وقد أرسلت ملف المسابقة والمخطط الأولي كما وعدت ندى في مكالمتها. فتح الرسالة، فوجد دعوةً رسمية للمشاركة ضمن الفريق الذي يعمل على معاينة الخان وإعداد مقترح للموقع، مع موعدٍ بعد أسبوعين لتسليم التصور الأولي.

في أسفل الرسالة كتبت هناء: «أخبرتني ندى أن طارق رشحك للعمل مع الفريق الميداني. إن رغبت في المشاركة، أرسل تأكيدك، وسأرتب لك زيارة الموقع وأجيب عن استفساراتك.»

أدار آدم نظره إلى الجدار المفتوح، إلى طبقات اللون التي ظهرت متجاورةً تحت الضوء.

لم يكن ثمة اتصال ثانٍ ولا وعدٌ بالنجاح؛ كانت دعوةً عملية محددة الأجل. كتب رداً مقتضباً يؤكد مشاركته، ثم عاد إلى الرسالة التي تركها مفتوحة على الطاولة. لم يشطب «سأبدأ قريباً». كتب على ظهر الظرف: «بدأتُ اليوم، ولو على مهل».

فتح ملف اللجنة ودفتر القياس الذي يستعمله في عمله. احتوى الملف صوراً للساحة ومخططاً هندسياً غير مكتمل ومحضراً قصيراً عن احتياجات الحي. كانت الساحة تتسع في الصورة ككفّ

حجرية، في وسطها بئرٌ مسدودة بإطارٍ إسمنتي، وعلى طرفها شجرة توتٍ عجوز تخفي أغصانها فوق مقاعد متهالكة. الخان وراءها ذو بابٍ قوسيّ، وعلى الجدار كتابةٌ مطموسة لا يقرأ منها إلا آخر كلمة: «الناس».

رسم خطوطاً أولية. ثم محاها. كتب: «ممر للمشاة»، و«مقاعد»، و«نافورة»؛ أحسها إجاباتٍ محفوظة، لا اقتراحاً يخرج من المكان. عاد إلى المخطط. البئر القديمة تقع على امتداد القوس، لا في منتصف الساحة. سأل نفسه: ماذا لو لم يُغلق فمها بلوحٍ جديد، ولم تُفتح بئرٌ للزينة؟ ماذا لو صار الخان نفسه ورشةً عامة للصيانة والتعلم، تتبدل وظيفتها بحسب اليوم: سوقاً صغيرةً نهار الجمعة، ومكاناً للتدريب في بقية الأسبوع؟ وماذا لو سُمح للماء، لا بوصفه نافورة، أن يعود في مجرى ضحل مكشوف يرسم طريقه القديم نحو أحواض الشجر؟

لم يكن يعرف بعد إن كان ذلك قابلاً للتنفيذ. كتب الفكرة في دفتره، ثم وضع حولها دوائر وأسئلة: مصدر الماء؟ التصريف؟ سلامة أرضية الخان؟ من يدير الورشة؟ كيف لا يتحول السوق إلى عبءٍ على السكان؟ كتب أسماء من ينبغي أن يسألهم، لا أجوبةً يتظاهر بها.

الجزء 3 · وهم الشباب

الفصل الثاني: ما لا يقوله المقيمون

◆ —— ◆

«ليس كلُّ ما بقي في مكانه دليلاً على أنه اختار البقاء»

اتصل بليلى. لم يقل إنه يريد الحديث في أمرٍ مهم، ولم يقل إنه سيأتي ليرى البيت الذي تسكن فيه. اكتفى بسؤالها إن كانت ستبقى في المنزل بعد الظهر. أجابته بأنها ستعود قبل الرابعة، ثم قالت: «هل أحضر شيئاً؟» قال: «لا، سأحضر أنا.»

فتحت ليلى الباب قبل أن يطرق ثانية. بدت أكثر شبهاً بما كانت عليه حين غادرت المدينة، لا في وجهها بل في وقفتها: متزنة، كتفاها مرتاحان، ويدها لا تبحث عن شيءٍ لتشغلهما. عانقته، ثم تراجعت خطوةً لتتفحصه.

«أنت تأكل؟»

«هذا أول سؤال؟»

«أميّز السؤال الذي لا يحتاج إلى جواب عن الذي يحتاج.»

قال آدم أخيراً: «وجدت رسالة يوم تخرجي.»

«في الصندوق؟»

أومأ. «كتبت أنني سأبني لأبي بيتاً لا يتسرب إليه المطر، وأن أجعل لك نافذةً تطل على شجرة.»

ابتسمت ليلى، لكن ابتسامتها لم تكتمل. «كانت هناك شجرة في نافذتي.»

«كانت محاصرةً بالجدار الخلفي.»

«لكنها كانت شجرة.»

لم يعرف إن كانت تمزح. قالت ذلك برفقٍ يكفي ليترك له مساحةً كي لا يدافع عن نفسه. وضع كفيه حول كوب الماء، وشعر ببرودتهما.

«أحياناً أفكر أنني تركت الوعود كلها تتراكم فوقك.»

«وأحياناً أفكر أنني لم أطلب منك أن تفي بها.»

تراجع قليلاً، كما لو أن العبارة أصابته في موضعٍ لم يكن يتوقعه. «لم أكن أعرف كيف أطلب منك أن تعودي. ولم أعرف كيف أقول إنني لا أستطيع الاستمرار وحدي.»

«كنت أعرف أنك لا تستطيع وحدك.»

«لكنني لم أسمع منكِ ذلك.»

«كنت أقول. ربما لم أقله بالطريقة التي كنت تستطيع سماعها.» سكتت، ثم أضافت: «وكانت المسافة بيننا تكبر كلما سأل أحدٌ عن أبي. الجميع كان يرى أنك موجود. وأنا كنت أسمع من بعيد أن كل شيءٍ بخير لأن آدم يتولى الأمر.»

لم تكن نبرتها اتهاماً. ومع ذلك، شعر بالميل القديم إلى جمع الوقائع كما يجمع حجراً متساقطاً، وترتيبها بحيث تبرئه: المكالمات، المواعيد، الليالي التي نام فيها على الكرسي، الأدوية التي لم ينسَها، المرات التي طلب منها فيها ألا تقلق. كاد يقول إن أحداً لم يعرف كم بذل. لكنه رأى أن ما ستقوله لا يمحو ذلك؛ وربما لهذا لم يحتج إلى أن يسبقها بالدفاع.

قالت: «لا أريد أن أحول ما فعلته إلى خطأ. كنت تحب أبي، ورعايتك له كانت محبةً حقيقية. أعرف ذلك. لكن أحياناً، حين كنت أقول إنني سأعود أسبوعاً أو أسبوعين، كنت تجيبني بأنك رتبت كل شيء. ثم أغلقنا الموضوع. ومع الوقت صرتُ أخاف أن يكون رجوعي تدخلاً في طريقةٍ بنيتها وحدك.»

«لم أكن أريد أن أبدو محتاجاً.»

«أعرف.» نظرت إلى الشرفة. «كنت أظن أنني إذا قلت إنني أفتقد البيت، سأبدو كأنني أطلب منك أن تحملني أيضاً. ثم انتظرت أن تفهم من نفسك. لم تفهم، ولم أشرح. هكذا صار الصمت بيننا عادياً.»

قال آدم: «كان أسهل أن أقول إنك اخترتِ الرحيل.»

«وكان أسهل لي أن أقول إنك اخترتَ أن تبقى.» التقت عيناهما. «لكن الأمر لم يكن بهذه البساطة.»

لم تقل إنها تعرف كل ما كان يشعر به، ولم يطلب منها ذلك. جلسا قليلاً على وقع صوت سيارةٍ تمر أسفل البناية. ثم قالت، بصوتٍ لا يضغط عليه: «لم تبقَ بطلاً من أجلنا، يا آدم. أحياناً كان البقاء أسهل من تجربة الرحيل، أليس كذلك؟»

لم يكن في السؤال حيلة. لم يكن ينتظر جواباً واحداً. نظر إلى كوبه، حيث تحركت دائرة الضوء على سطح الماء.

«نعم. أظن ذلك.»

«وهذا لا يجعل ما فعلته أقل محبةً. ولا يحوّلك إلى شخصٍ آخر. أنا فقط لا أريد أن تظل محبوساً في صورة الابن الذي لا يحق له أن يتعب، ولا أن يختار شيئاً لنفسه.»

أطرق. كانت العبارة التي لم تقلها حرفياً قد وصلت إليه واضحة: لا تجعل الرعاية محكمةً، ولا تجعل الوفاء قناعاً يستحيل نزعه. أدرك أنه اعتاد أن يستند إلى صورة الابن المضحي كلما اقترب من سؤالٍ يخيفه. إذا كان هو الذي يتولى كل شيء، فلا يحتاج إلى أن يسأل ماذا يريد، ولا إلى أن يعترف بأن البقاء لم يكن مفروضاً عليه دائماً. كان في بقائه حبٌّ لا شك فيه، وكانت فيه أيضاً عاداتٌ وخوفٌ وطرائق قديمة لقياس القيمة. لم يبطل أحدها الآخر.

قال: «كنت أخلط بين أن أكون وفياً وبين أن أكون بلا رغبة.»

«وأنا خلطت بين أن أبتعد وبين أن أتركك وحدك.»

«لم تتركيني وحدي تماماً.»

«لكننا تركنا بعضنا في أشياء كثيرة.»

لم يهرب من الجملة. قال: «أجل.»

عادا إلى الطاولة، وتحدثا عن البيت. قال إنه يصلح الجدار الداخلي، وإنه لا يعرف بعد ما إذا كان سيعود إليه أو يبيعه أو يتركه مفتوحاً لأيامٍ محددة. أجابت بأنها لا تريد منه وعداً فورياً. تريد أن تتشارك معه القرار حين يحين، لا أن تسمع النتيجة بعد أن يصير كل شيءٍ أمراً واقعاً.

«أريدك أن ترَي البيت»، قال. «ليس لتقرري ما أفعل، لكن لأن بعض الأشياء تخصنا معاً.»

«سآتي.»

حين نهض للمغادرة، ناولته ليلى كيساً صغيراً فيه شتلة ريحان. «لنافذة أبي، أو نافذتك. اختر أنت.» أخذها بحذرٍ مبالغٍ فيه، كأنه يحمل وعاءً من الزجاج. قالت: «إن ماتت فلا تجعلها دليلاً على أنك لا تصلح لرعاية شيء.»

«سأحاول ألا أحول النبتة إلى مسابقة.»

«هذه بداية جيدة.»

سأل صاحب عربة الخضار عمّا ينقصه في الساحة. قال الرجل إنه لا يريد مقاعد جديدةً بقدر ما يريد مكاناً يضع فيه الصناديق عند الصباح، من دون أن يسد الطريق. سألته امرأةٌ مسنةٌ عن الظل، وقال صبيان إنهما يلعبان هنا بعد المدرسة لكن أحدهم يصرخ عليهما كلما اقتربا من باب الخان.

شرح لهما آدم أن الباب قد يُفتح في المستقبل، فانصرفا وهما يتجادلان حول ما يمكن أن يكون وراءه.

رسم بعد ذلك مجرى ماءٍ رفيعاً يبدأ عند فم البئر، يمر بمحاذاة الجدار لا وسط الطريق، وينتهي عند حوضي شجرٍ منخفضين. كتب «ماء مستعاد لا زينة ثابتة»، ثم وضع علامة استفهام كبيرةً عند

المصدر. بقيت الفكرة في رأسه حين عاد إلى البيت، لكنه لم يسمح لها أن تصير شعاراً. كلما رسم تفصيلاً، ألحق به سؤالاً عن صيانته واستخدامه.

في الليل، نقل المسودة إلى ورق شفاف فوق المخطط الأصلي. جعل الخان في مركز الحركة لا خلفيتها. رسم باباً منزلقاً من ألواحٍ خشبية يمكن تثبيتها مفتوحةً على الجدار، من غير أن يقطع القوس الحجري. ترك البئر في موضعها، وأزال عنها الإسمنت في التصور، ووضع شبكةً معدنية قابلة للرفع حولها، لا لتكون حاجزاً دائماً بل غطاءً آمناً حين لا تُستخدم. لم يقرر بعد إن كان الماء يمكن أن يعود. رسمه خطاً منقطاً، كأنه احتمالٌ لا وعد.

ثم عاد إلى الرسم. فوق الباب وضع شريطاً خشبياً قابلاً للاستبدال، لا يُكتب عليه اسم المشروع، بل تُعلّق فيه كلمات الناس عن الساحة، أو مواعيد الورشة، أو ما يحتاجه الخان. لم يكن متأكداً إن كان ذلك سينجح. لكنه أحس للمرة الأولى منذ وصوله إلى البيت أن اقتراحه لا يدعي معرفة المستقبل؛ إنه يترك للناس مكاناً كي يشاركوا في صنعه.

الجزء 3 · وهم الشباب

الفصل الثالث: المساحة التي لم تُملأ

◆ —— ◆

«أحياناً لا نحتاج إلى أن نمحو الفراغ؛ يكفي أن نهيّئ له ما يستحق أن يُقال.»

في اليوم التالي، وصل آدم إلى الخان قبل أن تفتح المحال. كان يحمل شريط قياسٍ ودفتره ورزمة أوراقٍ بيضاء. وقف عند الباب القوسيّ، واستمع. في الساحة كانت هناك أصواتٌ قليلة: مكنسةٌ تجرّ الحصى، بابٌ معدني يفتح، ونداءٌ بعيدٌ بين بائعين. من داخل الخان تسرب هواءٌ بارد يحمل رائحة

غبارٍ قديم ورطوبة. أخرج مصباحه، وأضاء الجدار المقابل. لم تكن الكتابة المطموسة أوضح من الصورة، لكن آخر كلمة بقيت هناك: «الناس».

كانت الفكرة غير التقليدية تتشكل في طبقات. بدلاً من ترميم الخان إلى مبنى مغلقٍ له برنامجٌ وحيد، اقترح أن يصبح «ورشة الساحة»: مساحةً عامةً ذات تجهيزاتٍ خفيفة قابلة للتحويل. يتعلم فيها شباب الحي أساسيات صيانة الحجر والخشب بإشراف حرفيين، وتُستخدم الطاولات نفسها في السوق الأسبوعي. تدعم الورشة صندوقاً للصيانة تُسجل فيه احتياجات المباني المجاورة، ويشارك المتدربون في أعمالٍ بسيطةٍ تحت إشراف أهل الخبرة. لا يتولى المشروع إصلاح المدينة كلها، ولا يدّعي أن نشاطاً واحداً يحل مشكلاتها؛ إنه يخلق نقطةً صغيرةً تتبادل فيها المعرفة والأدوات.

أما البئر، فلم يرسمها نافورةً تتلألأ في مركز الساحة. أبقاها مورداً يُختبر قبل أي قرار. اقترح كشف فمها وتقييم حالتها الإنشائية والمائية، فإن لم تكن صالحةً للاستخدام بقيت علامةً على ذاكرة الماء، وجُعل حولها مجرى جافٌّ يستخدم لتصريف مياه المطر. وإن ثبتت صلاحيتها وفق الفحوصات، أمكن تشغيل قناةٍ ضحلة بكميةٍ محدودة نحو أحواض الشجر.

كتب في المسودة: «لا يُعاد الماء إلى الحركة قبل أن نعرف من أين يأتي، وإلى أين يذهب، ومن سيصونه».

اتصلت به هناء من اللجنة، وسألته إن كان سيرسل مخططه التمهيدي قبل نهاية الأسبوع. قال إنه سيرسله في موعده. ثم سألها إن كان ممكناً أن يعقد جلسة استماع قصيرةً مع من يستخدمون الساحة، فأجابت أن المسابقة لا تمنع ذلك، لكنها لا تستطيع ترتيبها. «أنتم أصحاب المقترحات، وعليكم أن تقرروا كيف تصلون إلى الناس.»

دوّن كل شيء. لم يتظاهر بأن جميع الرغبات قابلةٌ للجمع. رأى في بعضها تعارضاً حقيقياً، وفي بعضها نقصاً في الرسم يمكن إصلاحه. وحين عاد إلى المكتب، لم يحذف خطته الأولى. وضع نسخةً

جديدة إلى جانبها، وجعل طاولة الورشة أقرب إلى الداخل، وأبقى ممرّاً جانبياً يصلح للدخول والخروج من غير عبور منطقة العمل. أضاف مقعدين بمساند، وترك مساحةً لعربة الشاي قرب جدارٍ لا يعيق الحركة.

كان قد وعد نفسه أن يزور كمال منذ أيام، لكنه أراد أن يحمل إليه شيئاً يتجاوز السؤال المعتاد عن الصحة. اتصل ببيت أستاذه، فردت ابنته سلوى؛ أخبرته أن كمال يقضي صباحه في البيت، وأنه يستطيع أن يأتي متى شاء. لم يطلب منها أن تمهد له الحديث أو تشرح له ما قد ينساه. قال فقط إنه يحمل مخططاً يريد أن يريه إياه.

في صباح اليوم التالي، أخرج المخطط إلى الضوء، وبقيت المساحة التي حول البئر فارغةً في الرسم. لم يضع فيها نصباً ولا مظلةً ولا مقعداً؛ تركها خاليةً لأن حركة الناس ستقرر شكلها. في أسفل الورقة كتب ثلاث مراحل واضحة، وتحتها أسماء الجهات التي تحتاج إلى مشاركة: الحرفيون، وأصحاب المحال، ومستخدمو الساحة، والبلدية. راجع المقياس، ثم صحح عرض الممرّ. أضاف تفصيلاً عقدياً لالتقاء المجرى بحوض الشجر، مستخدماً حجراً محلياً قابلاً للفك والصيانة. هذه المرة لم يكن الرسم وعداً واسعاً؛ كان مسودةً يمكن لشخصٍ آخر أن يناقشها.

حمل النسخة المطوية إلى بيت كمال. استقبلته سلوى عند الباب، وأرشدته إلى غرفة الجلوس. كان الأستاذ قرب النافذة، أمامه كوب شاي ودفتر مفتوح، فرأى آدم وجهه يرفع إليه نظرةً متفحصة قبل أن يتعرف إليه.

«آدم. كنت أفكر فيك أمس.»

«وأنا فكرت فيك.»

«هذا جيد. لا ينبغي أن يتولى أحدنا وحده مهمة التفكير بالآخر.» قالها ثم ضحك، كأنه سمع غرابة عبارته. أشار إلى الداخل، ودلّه على الكرسي قرب النافذة. كانت على الطاولة كتبٌ قديمة ووعاء تمرٍ مفتوح. جلس كمال ببطء، وقال: «أخبرني، ماذا ترمم هذه الأيام؟»

«الماء؟»

«احتمال. لا أريد أن أعيده قبل فحص البئر. وإن لم تصلح، يتحول المجرى إلى قناةٍ لماء المطر.»

«جيد. كثيرون يضعون الماء لأنهم يحبون صوته، ثم ينسون من سيدفع ثمنه ومن سينظف القناة.»

«هذا ما قلته في الملاحظات.»

قلب كمال الورقة. «وما هذه الورشة؟»

شرح له الفكرة؛ خانٌ مفتوح، طاولات قابلة للتحويل، تدريبٌ على الحرفة، وسوقٌ أسبوعي.

أصغى كمال، ثم سأل من سيعلم المتدربين، وكيف ستُحمى أدوات الورشة، وهل يمكن أن يصبح النشاط حكراً على مجموعةٍ واحدة. لم يبدُ أنه نسي ما سمع؛ لكنه حين أنهى سؤاله عاد إلى الصفحة الأولى وسأل آدم عن اسم المكان.

«ساحة القنديل.»

«القنديل... نعم. أعرفه.» أعاد نظره إلى الصورة. «هل زرناه معاً؟»

«زرناه مرات. أخذتني إليها وأنا صغير. قلت لي وقتها إن الحجر لا يطلب منا أن نرجعه إلى يومٍ بعينه.»

ظل كمال ساكتاً. مرر إصبعه على حافة الصورة، لا على وجهها. «ربما قلت ذلك. كنت أحب أن أقول أشياءً تبدو عميقة كي يتركني طلابي وشأني.»

«وربما كانت عميقةً فعلاً.»

ضحك الأستاذ، ثم سكن وجهه. «هل أنت متأكد أنني قلتها؟»

«لا أذكر الكلمات بالضبط. أذكر المعنى.»

«هذا أفضل. الكلمات تذهب أولاً أحياناً.»

لم يحاول آدم أن يطمئنه بعباراتٍ جاهزة. لم يقل له إن كل شيءٍ سيكون بخير، ولم يسأله أن يعيد حكايةً ربما لن يستطيع استعادتها. قال: «هل يناسبك أن آتي الأسبوع المقبل وأريك النسخة الجديدة؟»

نظر كمال إليه كأن الموعد يحتاج إلى أن يمسك به. «الأربعاء؟»

«الأربعاء.»

كتب آدم اليوم على قصاصةٍ وتركها بجانب وعاء التمر، ثم أضاف عنوانه ورقم هاتفه. لم يكن متأكداً إن كان الأستاذ سيقرأها لاحقاً، لكنه لم يجعل ذلك سبباً لئلا يتركها. قبل أن يغادر، أخذ كمال المخطط إلى يديه مرةً أخرى.

«هذا عملٌ حقيقي، يا آدم.

ليس فكرةً كي يعجب بها أحد.»

كانت الجملة قصيرةً، غير أن آدم شعر بها في مكانٍ أعمق من أذنه. قال: «ما زالت مسودة.»

«المسودة عملٌ حقيقي أيضاً.»

على الطاولة في البيت، كانت المسودة تنتظره. فتحها، وأزال عنها قصاصةً صغيرة كانت تثبتها. لم تمتلئ الصفحة؛ في الركن الأيمن بقي فراغٌ أبيض واسعٌ لم يعرف بعد ما الذي سيضعه فيه. فكّر أن

يضيف رسماً لمنظرٍ مسائي، ثم لم يفعل. أعاد النظر إلى الخطوط، وإلى الملاحظات التي كتبها بعد كلام الناس، وإلى الشقوق التي سجلها في الخان، وإلى كلمة «الناس» التي بقيت على الجدار.

فتح ملف التصميم على الحاسوب وسمّاه «مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم ـ المسودة الأولى». حفظه، ثم عاد إلى الصندوق. وضع رسالة يوم التخرج في المظروف، لكنه لم يغلقه. تركه إلى جوار المخطط، حيث بدت عبارة «سأبدأ قريباً» كأنها كُتبت لشخصٍ لم يكن يعرف كم ستطول كلمة «قريباً». وفي أسفل الصفحة البيضاء، وضع نقطةً صغيرة بقلمه. لم تكن بداية الجدار ولا نهاية الفراغ؛ كانت فقط علامةً على أنه وصل إلى الصفحة.

جلس أمامها طويلاً. خلفه، في الغرفة الأخرى، كانت المونة تجف على الجدار القديم. في الشرفة الصغيرة وقفت شتلة الريحان، مائلةً نحو الضوء. وعلى الهاتف ظهر تنبيهٌ بموعده مع الأستاذ كمال يوم الأربعاء. لم يفتح رسالةً جديدةً ليكتب لنفسه وعداً آخر. اكتفى بأن سحب الصفحة البيضاء نحوه، وأمسك القلم.

الجزء 4 · الترميم الأخير

الفصل الأول: الورقة التي بقيت

◆ —— ◆

«ليس كل فراغٍ نقصاً؛ بعضه مساحةٌ تنتظر يدك.»

لم يكن في الصندوق ما لم يره آدم من قبل، ومع ذلك ظل يقلب أشياءه كما لو أن القاع قد يخفي جواباً أخيراً. أخرج الرسائل واحدةً واحدة، وردّ إليها ترتيبها الذي رتبه في الليلة الماضية: خط الطفل المتعجل، ثم خط الفتى الذي حاول أن يبدو أكبر من عمره، ثم كلمات الشاب التي كُتبت

يوم التخرج وهي تتظاهر باليقين. بقي الصندوق مفتوحاً على الأرض، خشبه الداكن يلمع عند الحواف حيث أكلته أيدي السنين.

مدّ أصابعه إلى قاعه. هناك، تحت قطعة قماش مطوية كانت تحمي الرسائل، عثر على ورقة بيضاء، لا طيّة فيها ولا أثر حبر. رفعها بحذر، وقرّبها من النافذة. لم تكن عليها علامة مائية ولا كتابة خفيفة تخونهما الشمس. بياضها عادي، هادئ، كبياض ورقة انتظرت طويلاً ولم تملّ.

على ظهرها، بقلم أبيه، جملة واحدة: «اترك له ورقةً يكتب فيها حين يعرف ما يريد أن يقول.»

جلس آدم. ظل ينظر إلى العبارة حتى صار خط أبيه أقرب إلى صوت منه إلى حبر. لم يترك له أبوه اعتذاراً مستتراً، ولا وصيةً متأخرة تشرح كل ما لم يشرح. ترك مساحة فحسب. ربما خاف أن يملأها عنه، وربما عرف أن بعض الأشياء لا تُعطى جاهزة؛ لا بد أن يعثر المرء على طريقته في كتابتها.

لم يكتب آدم شيئاً. أعاد الورقة إلى مكانها، لكن هذه المرة لم يغطها بالقماش. وضعها بين الرسائل بحيث يستطيع أن يراها كلما فتح الصندوق.

في الخارج، مرّت سيارة ببطء في الزقاق، ثم سكن المكان. البيت الذي قضى فيه طفولته لم يعد يبدو غريباً تماماً، لكنه لم يعد بيتاً يستطيع أن يختبئ فيه أيضاً.

خلال الأيام الماضية، صار يتنقل بين غرفه كمن يتعلم أن يراها بلا أن يطلب منها أن تعيده إلى زمن مضى. كان في الجدار قرب الدرج شقّ قديم، وفي سقف الممر بقعة رطوبة عاد إليها اللون بعد أن أصلح مصدر الماء. أما باب غرفة أبيه، فظل مفتوحاً، لا عن تسامح كامل ولا عن غضب، بل لأن آدم لم يجد سبباً لإغلاقه.

رنّ هاتفه فوق الطاولة. كانت ليلى.

قالت: «هل أنت صاحٍ؟»

«منذ الفجر تقريباً.»

«إذن أنت مستعد لأن أراك.»

جاءت بعد ساعة تحمل كيساً ورقياً فيه خبز دافئ وعلبة صغيرة من الجبن. وضعت الطعام على الطاولة، ثم نظرت إلى الصندوق المفتوح. لم تسأله عما وجد، عرفت من ملامحه أن ثمة شيئاً جديداً، لكنها انتظرت.

قال آدم: «ورقة بيضاء. تركها أبي لي.»

اقتربت ليلى ورأت خط أبيها. ابتسمت ابتسامة قصيرة لم تكتمل، كأنها تخشى أن تفسدها المبالغة.

«كان يعرف أنك ستصل إليها متأخراً.»

«أو أنه لم يعرف ماذا يكتب.»

«يمكن أن يكون الأمران صحيحين.»

جلسا إلى المائدة. لم يتحدثا عن الرسائل فوراً. تحدّثا عن السقف الذي يحتاج إلى لوح جديد، وعن باب المخزن الذي لا ينغلق إلا إذا رفعه المرء قليلاً، وعن الجيران الذين أرسلوا طبقاً من الطعام في يوم العزاء ثم لم يجدوا فرصة لاستعادته. كانت التفاصيل الصغيرة تمنح الكلام أرضاً يقف عليها. وبعد أن انتهيا من الطعام، قالت ليلى:

«لم أكن أعرف أنك كنت تلوم نفسك على كل شيء.»

نظر إليها. لم يكن في صوتها عتاب، لكن عينيها لم تكونا خاليتين من التعب.

«لم أكن أعرف أنا أيضاً. أو كنت أعرف، وأفضّل أن أسميه مسؤولية.»

«كنت أظن أنك تركت البيت لأنك أردت حياةً أخرى.»

«أردت ذلك. لكنني تركته أيضاً لأنني لم أحتمل أن أبقى هنا وأرى ما لم أستطع إصلاحه.»

حركت فنجانها بين يديها. «وأنا بقيت لأن أحداً كان يجب أن يبقى. ثم صرت أقول لنفسي إن البقاء كان اختياري، حتى لا أغضب منك.»

لم يدافع آدم عن نفسه. كان يستطيع أن يشرح كيف بدا الرحيل آنذاك ضرورياً، وكيف ظن أن المسافة ستخفف ما يشعر به، لكنه عرف أن التفسير لا يمحو ما وقع عليها. قال: «آسف لأنني تركت لك المكان كله، حتى ما لم يكن لك.»

أخفضت عينيها إلى الفنجان. «وأنا آسفة لأنني عاملتك كأنك مدين لي بأن تعود.»

انقطعت الجملة، لا لأن ما بعدها مجهول، بل لأن كليهما لم يرد أن يحمّل الآخر اعترافاً أكبر من قدرته في ذلك الصباح. مدت ليلى يدها فلامست أصابعه. بقيت يدها هناك لحظة، ثم عادت إلى فنجانها. كان ذلك كافياً.

بعد الظهر، سار آدم إلى ورشته. لم يكن قد عاد إليها منذ وفاة أبيه إلا لوقت قصير، وكان الغبار قد استقر على طاولة العمل مثل طبقة رقيقة من الصمت. رفع قطعة قماش عن مشروعه القديم: نموذج خشبي لبيت مهجور، شرفته ضيقة ونوافذه مقفلة. كان قد بدأه قبل أشهر، ثم تركه عند منتصفه. لم يكن ينقصه سوى أن يقرر ما إذا كان سيعيد بناء الشرفة كما كانت أو يفتحها على الحديقة.

أعاد القماش إلى مكانه، ثم أخرج من درج مكتبه ملف «مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم».

كانت الصور الأولية للخان والساحة مطويةً عند أطرافها من كثرة ما حملها إلى الموقع. عمل طارق مع الفريق الميداني في معاينة الخان، وكان آدم قد وعده أن يراجع معه الملاحظات قبل أن يضع خطته النهائية. لم تكن المسابقة مشروعاً منفصلاً عن عملهما هناك؛ كانت فرصةً لتجميع ما عرفاه عن الحجر والباب القوسي والبئر والناس الذين يمرون بالساحة كل يوم.

فتح المخطط فوق الطاولة، فظهرت المساحة التي بقيت بيضاء حول البئر. أراد أن يقترح للجهة المنظمة ما اتفقوا على اختباره: ورشة خفيفة قابلة للتحويل داخل الخان، وساحة تبقى ممرّاً ومكان جلوس وسوقاً أسبوعياً، ومجرى ماء لا يُنفذ قبل التحقق من المصدر والتصريف. عاد إلى أسئلة الكلفة والصيانة والسلامة، ولم يخفها في الوصف. راح يغيّر السطر الأول، ثم يمحوه، ثم يكتبه من جديد. مضى المساء ولم يرسل شيئاً.

حين عاد إلى البيت، وجد ليلى قد غادرت، لكنها تركت الصحون نظيفة والنافذة مفتوحة. في الصندوق، كانت الورقة البيضاء تنتظر. وضعها فوق الأوراق هذه المرة، ولم يكتب عليها. حمل المخطط إلى غرفة أبيه، جلس إلى المكتب القديم، وفتح الرسالة التي كتبها في الخامسة والعشرين. لم يقرأها كاملة؛ اكتفى بالسطور الأخيرة التي تحدثت عن الحياة التي ستبدأ «حين يصير مستعداً».

ضحك في نفسه من رقة ذلك الشاب الذي ظن الاستعداد باباً يفتح ذات يوم دفعة واحدة. ثم انحنى فوق المخططات. الليل لن يجيب عن كل شيء، لكنه قد يكفي لتعديل مقياس، أو رسم مدخل، أو وضع خط لا يخجل من ميله.

الجزء 4 · الترميم الأخير

الفصل الثاني: ما لا تحفظه الذاكرة

◆ —— ◆

«.قد يغيب الاسم عن الذاكرة، ولا يغيب أثر اليد»

في الصباح التالي، اتصل آدم بالأستاذ كمال. كان قد أرجأ زيارته يومين، لا لانشغاله وحده، بل لأنه خشي اللحظة التي لن يعرفه فيها معلمه. جاءت ليلى إلى الهاتف قبله تقريباً، كأنها كانت تنتظر أن يتصل. قالت إن كمال مرّ بساعة صعبة في اليوم السابق، وإنه عاد في المساء إلى هدوئه المعتاد. لم تعد تتحدث عن حالته كأنها معركة ذات نهاية محددة؛ صارت تقول: «اليوم كان أفضل»، أو «اليوم أتعبه الكلام»، وتترك الأيام على قدرها.

في دار الرعاية، استقبله موظف يعرفه، وأرشده إلى غرفة صغيرة تطل على حديقة داخلية. كان كمال جالساً قرب النافذة، يرتدي سترة رمادية ويضع على ركبتيه كتاباً مغلقاً. أمامه على الطاولة كوب شاي فاتر، وبجانبه دفتر رسم قديم. بدا أصغر قليلاً مما في ذاكرة آدم، أو لعل آدم كان يتذكره دائماً واقفاً أمام لوحة كبيرة، يرفع يديه ويطلب من الطلاب أن يتراجعوا خطوتين.

رفع كمال رأسه حين دخل آدم. حدّق فيه لحظات طويلة، ثم قال: «أعرف هذا الوجه.»

ابتسم آدم. «هذا يكفيني اليوم.»

«أنت من الذين كانوا يتركون آثار الطلاء على الكراسي.»

«كنت أقول إنها جزء من العمل.»

ضحك كمال، وارتخت ملامحه. «كنتَ تقول أشياء كثيرة لتدافع عن الفوضى.»

جلس آدم إلى جواره. لم يسأله إن كان يذكر اسمه. عرف أن السؤال قد يضع بينهما حاجزاً لا حاجة إليه. بدلاً من ذلك، فتح الدفتر. كانت صفحاته مليئة برسوم بسيطة: قوس نافذة، مقبض باب، ظل شجرة على حائط.

مرر إصبعه فوق رسم نافذة ذات مصراعين.

قال كمال: «من أين هذه؟»

«أظنها من مرسم المدرسة. كنت قد رسمت النافذة التي في آخر الممر.»

مال كمال على الصفحة. «صحيح. كانت النافذة تحتاج إلى ترميم.»

«أنت الذي قلت لي إنني أستطيع أن أتعلم ذلك.»

ظل الأستاذ ينظر إلى الرسم. ثم رفع عينيه إلى آدم، ولم يكن في نظرته يقين كامل، لكن فيها انتباهاً صافياً. «هل ما زلت ترسم؟»

«أرمّم البيوت.»

«هذا ليس جواباً عن السؤال.»

شعر آدم بحرارة خفيفة في وجهه، كأنه عاد فتى أمام معلمه. قال: «نعم. أحياناً.»

هزّ كمال رأسه. «لا تجعل العمل يأكل يدك التي بدأت بها.»

في تلك اللحظة، لم يكن آدم يعرف إن كان الأستاذ يقصد اللوحة أو البناء أو شيئاً أبعد. أخبره عن مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم، وعن الفناء الذي يريد أن يفتحه وعن الجدران التي يريد أن يترك أجزاءً منها كما هي. شرح الفكرة ببطء، متوقعاً أن يفقد كمال الخيط في منتصف الكلام. لكن الأستاذ تابع، وكانت عيناه تتنقلان بين وجه آدم والدفتر.

«هل رسمت المقترح؟»

«رسمته.»

«وهل أرسلته؟»

«لم أرسله بعد.»

«لماذا؟»

لم يرد آدم أن يختبئ خلف المواعيد أو التفاصيل. قال: «أخشى أن يكون سيئاً.»

وضع كمال يده على غلاف الدفتر. «قد يكون فيه شيء سيئ. لا أعرف مشروعاً بدأ كاملاً. لكن اللوحة لا يخربها أن يميل خطها الأول؛ ما يخربها أن يخاف الرسام من ميله، فيضع الفرشاة جانباً قبل أن يعرف ما يمكن أن يصير إليه.»

قال آدم: «كنت تقول لي هذا في المدرسة؟»

ابتسم كمال. «ربما. وربما تقوله أنت لي الآن.»

لم يصرّ آدم على تصحيح الأمر. بقيت الساعة بينهما خفيفة، تتخللها فترات صمت لا تحتاج إلى ملئها. أخبره عن البيت، عن الرسائل، وعن اعتذاره الذي لم يعرف أين يضعه. استمع كمال، ثم قال: «البيوت لا تحتفظ بكل الأصوات بالطريقة نفسها.»

توقف آدم عند الجملة. لم يكن يعرف هل هي حكمة قديمة أم صورة عبرت ذهن معلمه في تلك اللحظة. لم يسأله. قال فقط: «سأحاول ألا أطلب منها أن تعيد لي ما مضى.»

حين نهض ليغادر، أمسك كمال بمعصمه. كانت قبضته خفيفة، لكنها دقيقة. قال: «تعال مرة أخرى.»

«سأفعل.»

«من أنت؟» سأل كمال بعد لحظة.

لم يتغير وجه آدم. أجابه باسمه. كرره كمال ببطء، كمن يختبر جرسه، ثم أومأ. «آدم. نعم. كنت أظن أنني أعرف آدمَ آخر.»

قال آدم: «ربما تعرفه أيضاً.»

عاد إلى ورشته قبل الظهر. بسط المخططات على الطاولة وأزال منها بعض الخطوط التي رسمها لإرضاء لجنة متخيلة. وسّع المدخل، وحرّك الدرج كي لا يقطع الفناء، وأبقى حجراً أسود في الجدار الشرقي، حجراً احترق طرفه في حريق قديم. لم يحاول أن يجعله رمزاً كبيراً. تركه حجراً يحمل أثره، وحسب.

أعاد كتابة الوصف: «لا يسعى المقترح إلى إعادة خان السراي إلى صورة متخيلة من ماضيه، بل إلى استعادة قدرته على استقبال الناس. تبقى آثار الاستخدام مرئية، وتُفتح الساحة للتعلم والعمل والجلوس.

لا يُخفى ما تعرّض له المبنى، ولا يُترك ذلك سبباً لإبقائه مغلقاً.»

خلال الأيام التالية، عمل ساعات طويلة. عاد إلى الخان مع طارق، فقاسا الممرات وصوّرا شقوق الواجهة من زوايا مختلفة، وسألا مهندساً يعرفانه عن حمل السقف وتكاليف تدعيمه. لم يكن المقترح كاملاً، لكنه صار أوضح وأصدق. أضاف آدم إلى الملف تقديراً أولياً للمراحل، وكتب أين يمكن أن تتجاوز الكلفة المتاحة، ثم اقترح أن يبدأ التنفيذ بتأمين الخان وفحص البئر قبل تجهيز الورشة والساحة. لم يشأ أن يخفي الصعوبة وراء رسمة جميلة.

اتصل بليلى في إحدى الليالي، وقال لها إنه يوشك أن يرسل الملف. سألته إن كان يريد رأيها. قال: «أريد أن تقرئيه، لا أن تطمئنيني.»

جاءت في المساء التالي، جلست إلى طرف الطاولة، وقرأت كل شيء. عند صفحة الفناء، توقفت وقالت: «هنا ستحتاج إلى مسار أسهل لكبار السن.»

«صحيح.»

«وهذه العبارة طويلة.»

«أي واحدة؟»

أشارت إليها، فضحكا. ثم عادت إلى القراءة. لم تحاول أن تخفف عنه احتمال الرفض، ولم تقل إنه يستحق الفوز. وحين انتهت قالت: «أرى أنك وضعت في المشروع ما تؤمن به. لا أعرف إن كانت اللجنة ستختاره.»

«ولا أنا.»

«جيد. لا نعرف.»

في اليوم الأخير، وقف آدم أمام مخطط الواجهة. مدّ يده إلى قلم الرصاص، وأصلح خطاً كان يميل قليلاً عند زاوية الشرفة. ثم توقف. لم يعد الميل يزعجه. لم يكن مثالياً، لكنه لم يعد خطأ يفرض عليه أن يبدأ من الصفر. تركه، وكتب تحته مقياس الرسم. كان موعد التقديم ينتهي عند الخامسة مساءً.

الجزء 4 · الترميم الأخير

الفصل الثالث: خطوة الغد

◆ —— ◆

«يكفي أن تعرف إلى أين تضع قدمك التالية.»

لم يكن آدم قد أرسل الملف. بقي موعد التسليم أمامه يومان، وكان يستطيع أن يملأهما بتعديل الخطوط حتى لا يبقى فيها ميل، أو أن يقرأ الوصف مرة أخرى ويكتشف فيه عبارةً لا تشبهه. أغلق الحاسوب، وقرر أن يبدأ بما لا يمكن إنجازه على الشاشة.

اتصل بطارق وسأله إن كان يستطيع أن يلقاه في الخان. لم يقترح حديثاً طويلاً، ولم يقل إن لديه ما سيصلح كل شيء. قال فقط إن عليهما مراجعة مسار الدخول وتوزيع الطاولات قبل أن يثبت الرسم. أجابه طارق بأنه سيكون هناك بعد الظهر.

حين وصل آدم، كان طارق يراجع صوراً للباب القوسي مع أحد العاملين. أشار إليه أن ينتظر حتى ينتهي، ثم سار معه إلى الداخل. لم يتعاملا كأن الأيام التي بينهما اختفت؛ تبادلا الملاحظات عن الحجر المتآكل وعن العتبة التي تحتاج إلى تدعيم، واختلفا على موضع طاولة الورشة. قال طارق إن وضعها قرب المدخل سيجعلها تعيق المرور. أعاد آدم قياس المسافة، ورأى أن اعتراضه صحيح.

قال طارق وهو يطوي شريط القياس: «اخط هنا ما يمر.»

«صحيح. أحرك الطاولة إلى الجدار الداخلي.»

«أحسن.»

لم تكن المصالحة في أن يتفقا على كل شيء، بل في أن يختلفا على موضع طاولة من غير أن يتحول الخلاف إلى محاكمة قديمة. أخرج آدم دفتره، وسجل التعديل. ثم بقي واقفاً عند القوس لحظة، قبل أن يقول:

«أريد أن أعتذر عن شيء آخر. بعد مشروع المحطة، لم أكتف بأن أصدق أنني انسحبت لأنك أخطأت. رويت هذا للناس، وكررت أن فشل المشروع كان بسببك. حتى حين لم أكن أملك ما يثبت ذلك.»

ظل طارق ينظر إلى الباب، لا إلى وجهه. «قلت لك إن هذا آذاني.»

«أعرف. اعتذرت عن ذلك يوم جلسنا على الملف، لكنني لم أقل بوضوح إن نشر الرواية كان مسؤوليتي. أنا انسحبت من عرض مشروع بيت العابرين، ثم نسبت فشله إليك. لا أريد أن أحوّل اعتذاري إلى طلب أن تمحو ما حصل.»

تأخر جواب طارق. مرّ عامل يحمل لوحاً خشبياً، فتنحيا جانباً حتى عبر. قال طارق: «أنا سمعتك الآن. هذا لا يرجع السنوات، لكنه أحسن من أنك تظل تسكت عنها.»

«هذا كل ما أطلبه من نفسي.»

«لا تجعلها عبارةً جاهزة وتكررها كل ما شفتني.»

«لن أفعل.»

لم يتصافحا. أشار طارق إلى المسودة وسأله إن كان قد أضاف ملاحظات مستخدمي الساحة. فتح آدم صفحةً فيها تعليقات البائعين وأصحاب المحال، وشرح أين عدّل خط السير وأين ترك القرار مفتوحاً. انحنى طارق فوق الورقة. لم يقل إن المقترح سيفوز، ولم يقل إنه ممتاز. أشار إلى خانة الصيانة وسأل من سيتولى تسجيل الأدوات. كتبا احتمالين، وترك آدم علامةً كي يتأكد من اللجنة قبل التسليم.

في طريق العودة، اتصلت به ليلى.

قالت إنها تستطيع أن تمر بالبيت ذلك المساء، وإنها تريد أن يحسما ما سيبقيانه وما سيبيعانه، لا أن يتركا الصناديق مفتوحة إلى أجل لا يعرفانه. لم يسمع في كلامها استعجالاً، بل رغبةً في ألا يظل القرار معلقاً على كتفيهما وحدهما.

جاءت بعد المغرب، وجلسا في الغرفة التي فرغاها من الأثاث الثقيل. أحضرت قائمة كتبت عليها ما تريد الاحتفاظ به: صور الأم، بعض الأكواب، وعلبة الخياطة التي بقيت في الدرج

الأعلى. أضاف آدم مبرد الماء الصغير ومفك أبيه ذا المقبض الملفوف بالشريط الأخضر. أما بقية الأثاث، فاتفقا على أن يعرضاه لمن يحتاج إليه قبل أن يخرجا ما لا يصلح منه.

قالت ليلى: «أنا موافقة أن نبيع البيت، لكن بعد أن ننهي الإصلاحات الضرورية، ونختار مشترياً لا يشتري الأرض ليهدمه.»

«وأنا موافق. لا أريد أن أبقيه فقط لأنني أخاف من أن أراه ينتقل إلى أحد غيرنا.»

«ولا أريده أن يبقى عبئاً عليك لأنك تعتقد أن البيع خيانة.»

«ليس خيانة.» قالها ببطء، كأنه يختبر وزنها. «ولا هو حل لكل شيء.»

«بالضبط.»

كتبا معاً قائمةً قصيرة: إصلاح لوح الشرفة، تثبيت إطار النافذة، معالجة الرطوبة قبل الطلاء، ثم الاتصال بالوسيط بعد أن يريا البيت من جديد. لم يحددا تاريخاً مصطنعاً، لكنهما اتفقا على أن يختارا مشترياً يعرف أن البيت يحتاج إلى سكن ورعاية، لا إلى صورةٍ على إعلان.

وحين وصلا إلى الصندوق الأخير، لم يفرز آدم الرسائل. قالت ليلى إنها لا تريد أن تحملها، وإنه الأعرف بمكانها. لم تكن الكلمات ملكاً لأحدهما وحده، لكن الاحتفاظ بها صار عملاً يستطيع آدم أن يقوم به من دون أن يتظاهر بأنه يحفظ أباه في الورق.

في اليوم التالي عاد إلى البيت بمفرده. بدّل اللوح المتآكل في الشرفة، وسوّى إطار النافذة حتى عادت تفتح من غير أن تعلق، ثم وقف في الغرفة يراجع أثر الطلاء الذي لم يغطِّ كل علامات السنين. لم يكن الترميم محواً. أبقى خدوشاً قرب عتبة المطبخ، ونظف البقعة التي خلفها الماء بعدما أصلح سببها. كان يترك ما يستحق البقاء، لا لأنه كامل، بل لأن أثره صار جزءاً من البيت.

على المكتب، بقي الصندوق مفتوحاً. أخرج الورقة البيضاء التي تركها أبوه، وقلبها بين يديه. لم يكتب رسالةً جديدةً إلى نفسه كلها؛ كتب خطوةً واحدة يستطيع القيام بها غداً: «أتصل بالنجار لنتفق على إصلاح الباب الخلفي، ثم أراجع ملف الخان مع طارق.» لم تكن الجملة وعداً بأن كل شيء سيسير كما يريد. وضع تاريخ اليوم في أسفلها، ثم أعادها إلى الصندوق فوق رسالة العاشرة ورسالة السابعة عشرة ورسالة الخامسة والعشرين. بقيت الكتابات الثلاث تحت بياض الورقة، لا تمحو إحداها الأخرى.

حين أغلقت ليلى الصندوق، توقفت يدها فوق الغطاء. «تريد أن تتركها هنا؟»

«نعم.

سأعود إليها.»

«البيت سيباع.»

«الصندوق معي.»

لم تسأله إن كان متأكداً. طويا الورقة البيضاء برفق، ووضعا الصندوق في حقيبته. لم يكن أبوه قد كتب على ظهرها ما ينبغي فعله؛ تركها له، وترك لهما قرار البيت أيضاً. لم يجعل رعايته ديناً على ليلى، ولم يجعل رحيله حكماً على آدم. بقي في الأشياء ما لا يمكن حسمه بجملة واحدة.

قضى آدم الساعات التالية مع ملف المسابقة. أعاد فحص القياسات والصور، وتأكد أن اسم الموقع في الغلاف وفي الوصف واحد: «مسابقة إعادة تأهيل ساحة القنديل وخان السراي القديم». راجع تعليقات طارق، وأضاف مساراً جانبياً لا يقطع منطقة العمل، وأبقى فم البئر موضع اختبارٍ لا نافورةً مفترضة. في خانة التنفيذ، كتب أن المرحلة الأولى تبدأ بتقييم الحجر والبئر وتدعيم ما يلزم، قبل تركيب تجهيزات الورشة. أرفق تقديراً أولياً للكلفة، وذكر صراحةً ما يحتاج إلى معاينة إضافية.

وصلته رسالة من هناء تذكّره بموعد الإغلاق وتطلب رفع المخططات والوصف في ملف واحد. لم تكتب شيئاً عن فرص الفوز، ولم يسألها آدم عنها. أرفق نسخةً من جدول المراحل، ثم أرسل إلى طارق الصفحة التي عدّلها. رد طارق بملاحظة قصيرة عن عرض المدخل. أصلحها آدم، وأعاد إليه نسخةً جديدة. لم يتبادلا أكثر من ذلك، لكن كل واحد منهما رأى تعديله في العمل المشترك.

قبل الموعد بساعة، جلست ليلى إلى الطرف الآخر من الطاولة وقرأت الوصف للمرة الأخيرة.

أشارت إلى موضعٍ يحتاج إلى توضيح بشأن الممر المخصص لمن يتعذر عليهم استخدام الدرج. عدّل آدم الجملة ورسم بُعداً إضافياً على المخطط. لم تقل له إن اللجنة ستقبل المقترح. قالت فقط: «الآن صار مفهوماً.»

«هل وجدتِ شيئاً آخر؟»

راجعت الصفحة الأخيرة، ثم أعادتها إليه. «لا أريد أن أفتش عن خطأ كي أؤخره معك.»

أطرق. كان الخوف لا يزال في موضعه، في حلقه، وفي أصابعه التي أعادت ترتيب الملفات أكثر من مرة. لم يختفِ لأن ليلى قرأت المخطط أو لأن طارق أجابه، ولم يتحول إلى علامةٍ على أن عليه الانسحاب. حفظ النسخة النهائية، وأرفق صور الموقع ووصف المشروع وخطة المراحل. ظهرت أسماء الفريق كما اتفقوا عليها، واسم طارق بين المشاركين في العمل الميداني، واسم آدم إلى جانبه.

نهضت ليلى لتحضر له كوب ماء، ثم عادت وجلست من غير أن تراقب الشاشة. على حافة المكتب كان الصندوق مغلقاً، والورقة البيضاء في داخله تحمل خطوة الغد. لم يعرف آدم ما ستفعله اللجنة بالمقترح، ولم يحاول أن يملأ هذا الجهل بصورةٍ مريحة. راجع اسم الملف مرةً أخيرة، ثم وضع المؤشر فوق الزر. كان خائفاً، لكنه لم يكن وحده في الغرفة، ولم يعد ينتظر أن يصبح الخوف غائباً كي يتحرك.

ضغط آدم زر «إرسال». ابتسم؛ لم يعرف ما ستختاره اللجنة، لكنه أرسل مقترحه وهو خائف.

«لم يعد ينتظر أن يصبح الخوف غائباً كي يتحرك.»

رسالة من المؤلف

إلى قارئ هذه الرسائل،

ربما نعود إلى الماضي محمّلين بكلماتٍ لم تجد وقتها كي تُقال. وحكاية آدم تذكّرنا أن ترميم ما تهدّم لا يبدأ بخطةٍ كاملة، بل بخطوة صادقة؛ وأن الخوف قد يبقى حاضرًا، من غير أن يمنعنا من المضي.

أتمنى أن تمنحك هذه الرسائل رفقةً هادئة، وأن تترك لك في آخرها مساحةً بيضاء تكتب فيها خطوتك القادمة برفق.

مع مودّتي، علي إبراهيم خليل الخفاجي

© 2026 – جميع حقوق التأليف والنشر محفوظة للمؤلف: علي إبراهيم خليل الخفاجي.
لا يُسمح بنسخ الكتاب أو إعادة نشره كاملاً دون إذن خطي من المؤلف، مع مراعاة الاقتباسات المسموح بها قانوناً.

حبرٌ لا يجفّ

بعد وفاة والده، يعود «آدم» إلى بيت طفولته بنية بيعه وإغلاق الماضي إلى الأبد. لكن هدم جدارٍ قديم يكشف عن صندوقٍ مخفي يضم رسائل كتبها لنفسه في مراحل مختلفة من عمره.

لم تكن تلك الأوراق مجرد ذكريات عابرة؛ لقد حملت نبوءات بمخاوفه الحالية، وكأن الطفل الذي كانه قد رسم مسبقًا حدود السجن الذي يعيش فيه الرجل اليوم.

«حبرٌ لا يجفّ» رواية نفسية دافئة عن الشجاعة في إعادة قراءة ماضينا، وعن اللحظة التي ندرك فيها أن التغيير لا يحتاج إلى معجزة، بل إلى التوقف عن معاقبة أنفسنا.

امسح الرمز لزيارة
مكتبتي الرقمية: حيث
مؤلفاتي في مكان واحد.

علي ابراهيم
خليل الخفاجي